رؤية

في رحاب فن المقال

أ. د. محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج على

المشرف على المشروعات الثقافية
د. محيى عبد الحى

الإخراج الفنى
أحمد طه محمود

تصميم الغلاف
نسرين كشك

المراجعة اللغوية
سيد عبد المنعم

المتابعة
شريف عبد العزيز

المشروعات الثقافية

رؤية

في رحاب فن المقال

د. محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف

الطبعة الأولى: للهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢٠.

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل ـ رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي : ١١٧٩٤
تليفون : ٢٥٧٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٤٧٦/ ٢٠٢٠
ISBN 978-977-91-2793-4

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة، بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب. يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾

[هود: ٨٨]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـة

الحمـد لله رب العالمـين، والصلاة والسـلام عـلى خاتم أنبيائـه ورسـله سـيدنا محمـد بـن عبـد الله، وعـلى آلـه وصحبـه ومـن تبـع هـداه إلى يـوم الديـن.

وبعـــد:

فـإن فـن المقـال هـو فـن الفكـرة المركـزة، واللمحـة العابـرة، والكلمـة المنتقاة، وهـو من أهم مـا يميز صحيفة عـلى أخـرى، ويعطـي لهذه ميـزة على تلـك، فالمقـال ليس مجـرد هوايـة أو فكـرة عابـرة؛ إنـما هـو علـم وفن كسـائر العلـوم والفنـون، يظـل فيـه المتخصـص متخصصًـا، والمبـدع مبدعًـا، والمثقـف مثقفًـا، والمفكر مفكـرًا، والهُواة هُـواة.

ولا شـك أن في نفـس كل إنسـان منـا أسـئلة يراهـا مشروعـةً، وأخـرى يراهـا ممنوعـةً، أو يتوجـس أن تكـون

ممنوعـةً، أو يطـوي عليهـا نفسـه ولـو بشـق الأنفـس، غـير أن هـذا المنـع ليـس شرطًـا في كل الأحـوال أن يكـون ناتجًـا عـن عوامـل خارجيـة، فقد يكـون المنـع ذاتيًّا ناتجًا عن شـدة الإحسـاس بالمسـئولية، أو الالتزام الأدبي أو الاجتماعي، وفي فنـون المقال متسـع كبير لما تحملـه النفوس، أو تكنـه الضمائر مبـاشرةً، أو تلميحًـا، أو إسـقاطًا، عرضًـا أو تحليـلًا أو نقدًا.

ويضـم هـذا الكتـاب مجموعـة مـن المقـالات المتنوعـة تتنـاول عددًا مـن القضايـا الإيمانية والأخلاقيـة والوطنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسـية والإنسـانية، قدمت لهـا بمقدمـة مهمـة حول فـن المقـال طبيعته وأسـس بنائه، مـع التفرقـة بـين تجـارب الهُـواة، وحرفيـة المتخصصين في كتابـة المقال.

وعـلى شـاكلة مـا يصنـع كتـاب الأقصوصـة والقصـة القصـيرة ومحـاكاة لهـم في اختيـار اسـم القصـة أو الأقصوصـة الأهـم لديهـم عنوانًـا للمجموعـة القصصية كلهـا اخـترت عنـوان "في رحـاب فـن المقـال" ثـم أردفته بالعنـوان الفرعـي "أسـئلة مشروعـة وأخـرى ممنوعـة" لتسـليط بـؤرة اهتـمام المتلقـي على هذيـن المقالـين، حيث أعدهـا خلاصـة وعصـارة لفكـرة اختمـرت في الذهـن

طويـلًا، ولم تكـن أبـدًا عفويـةً أو تلقائيـةً، فالموضـوع الأول "في رحـاب فـن المقـال" ناتـج عـن تجربـة أكاديمية عشـتها لأكثـر من ثلاثـة عقـود، مارسـت فيها فـن المقال إمـا دارسًـا، وإمـا ناقدًا، وإمـا كاتبًـا، أما العنـوان الفرعي الآخـر فهـو مزيـج بين هـذه التجربـة الأكاديميـة، وتجربة حياتيـة أخـرى لازمتنـي فـترة غـير قصـيرة مـن الزمـن.

وإني لأرجـو أن يقـدم هـذا الكتاب تجارب تسـتحق ما يبـذل في قراءتهـا أو إعـادة قراءتها مـن وقت وفكـر أو كدٍّ للذهن.

وقـد آثـرت السـهولة واليـسر، وتجنـب كل ألـوان التكلـف والتعقيـد لفظيًّـا كان أم معنويًّـا، فـإن كنـت قـد وفقـت فيـما قصـدت فذلـك فضـل الله وكرمـه وعونـه وتوفيقـه، وإن كانـت الأخـرى فحسـبي أني حاولـت واجتهـدت.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل

أ.د. محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
عضو مجمع البحوث الإسلامية

في رحاب فن المقال

فن المقال واحد من أهـم الـفنون الأدبية الـتي سـاعد انتشار الصحافة الورقية والإلكترونية على ازدهارها في عصرنا الحديث، وهو فن الفكرة المركزة، واللمحة العابرة، والكلمة المنتقاة، غير أن هذا الانتشار الواسع السريع لهذه الصحف الورقية والصفحات والمواقع الإلكترونية قد أغرى كثيرين من غير المؤهلين لاقتحام فن الكتابة بصفة عامة والمقال بصفة خاصة، لإدراكهم وعورة مسالك الفنون الأدبية الأخرى من الشعر، والقصة، والرواية، وحتى القصة القصيرة والأقصوصة، ظنًّا منهم أن المقال هو الباب الأيسر والألين والأطوع والأقرب، متوهمين أن كل مجموعة جمل مرصوصة أي رص كان حتى لو كان بلا رصف ولا سبك ولا حبكة ولا أدوات فنية يمكن أن يكون مقالًا، أو أن يجعل من صاحبه كاتبًا، حتى رأينا

بعضهم يكاد يكون خطيبًا أو مؤلفًا أكاديميًّا، فيستهل المقال بما يستهل به الخطبة أو الكتاب، ولا يكاد بعضهم يفرق بين الخبر والحكاية والمقال، مما يتطلب من المتخصصين المؤهلين وقفاتٍ نقديةً، كما يتطلب من القائمين على الصحف السيارة وبخاصة الكبرى منها ومن كبار كُتَّابها وناقديها نظراتٍ فاحصةً فيما ينشر، وعقد دورات تدريبية وتأهيلية لشباب الكتاب، وأن تظل الأعمدة الكبرى مدراس فكرية، وألا يسمح لغير كبار الكُتَّاب باختراق مساحتها، في تمييز واضح بين كبار الكُتَّاب وأعلامهم وبين الهُواة الذين يجب أن ينشر نتاجهم في أبواب بريد القرَّاء ونحوها، وهو ما تزال بعض الصحف الكبرى تحافظ عليه إلى حد كبير.

وأكاد أجزم أن صفحات الرأي، وأقلام كبار الكُتَّاب، وقدرة الصحف على استقطاب أولئك الكتاب الكبار للكتابة فيها مع مصداقية الصحيفة فيما ينشر من أخبار هو أهم ما يميز صحيفة على أخرى، ويعطي لهذه ميزة على تلك، ويشجع القارئ الواعي المثقف على إيثار شراء صحيفة دون أخرى، بل قد يكون كاتب بعينه أو كاتبان

أو بعض الكُتَّاب هم سر مداومة بعض القرَّاء على قراءة صحيفة دون أخرى أو أن يكون للأخرى نفس الأولوية أو درجة الإقبال والشغف عندهم، كما أن بعض الأبواب الثابتة قد تكون وراء رواج صحيفة دون أخرى أو زيادة نسبة التوزيع في يوم عنه في يوم آخر، وأودُّ لو كان في كل مؤسسة أو وسيلة نشر صحيفة كانت أم مجلة أم موقعًا إلكترونيًّا وحدة لضمان جودة الأعمال فكريًّا وفنيًّا وإبداعيًّا فضلًا عن رصد الأخطاء الفادحة أسلوبيًّا ولغويًّا وطباعيًّا في ما ينشر على بعض المواقع، مما يفقد الأعمال جانبًا كبيرًا من قيمتها وبهائها ورونقها فضلًا عن تقديرها واحترامها في بعض الأحايين، حتى صار الإتقان الذي هو أصل من أصول ديننا استثناء، وكاد الاستثناء في الخروج على النص أن يكون أصلًا، وكُتَّاب المقال على الجملة فريقان: الكاتب المتخصص، والكاتب الشمولي، ولكل دوره ونكهته، أما الكاتب المتخصص فهو من يحبس نفسه على فن من فنون المقال السياسي، أو الديني، أو الاقتصادي، أو الفني، أو الرياضي، أو العلمي، بحيث يصبح علمًا في فنه، وعلامةً بارزةً بين قرَّائه المتخصصين بما قد يصل به إلى كونه عمدةً

أو مرجعًا لا يمكن تجاوزه فيما حبس نفسه عليه، وهذه مدرسة تستحق التقدير، غير أن صاحب هذا الاتجاه مع تميزه الشديد فيه يكون في حاجة ماسة إلى قدرة كبيرة على حبس النفس على هذا الفن وكبح جماحها عما سواه، نظرًا لاتساع الهموم والرغبة الجامحة لدى كثيرين في الإدلاء في كل فن بدلو أو بطرف، وهذه القدرة على التحكم في النفس لا يستطيعها كل الناس أو كل الكتاب، على أن خروج الكاتب مرة هنا وهناك لا يخرج به عن كونه كاتبًا متخصصًا.

أما الكاتب الشمولي فهو ذلكم الكاتب الذي يتخذ من المجتمع وفنونه وقضاياه المتنوعة مادةً خصبةً واسعةً، فهو أشبه ما يكون بالشاعر أو الروائي أو القاص أو المصور، الذي يلتقط كل ما يخطف نظره أو يسترعى انتباهه، ليس حاطب ليل كما يقولون، إنما هو مبدع أو مفكر أو مثقف مهموم بهموم العامة تتسع مداركه الثقافية والفكرية اتساع هذه الهموم وتلك الأماني والمستجدات، فهو متتبع للأحداث متعقب لها يعمل قلمه حيث شد انتباهه، غير أنه في الأعم الأغلب يقف عند ظواهر الأمور، وإن تعمق

أو تأمل أو حاول سبر أغوار بعضها فقد لا يكون بعمق هذا المتخصص المنقطع لفنه، وحتى لو حالفه التوفيق في مقال هنا أو هناك فأصاب فيه المحز، فإن التخصص يظل تخصصًا، والمتخصص يظل متخصصًا، والمبدع مبدعًا، والمثقف مثقفًا، والمفكر مفكرًا، والهُواة هُواة.

ولا شك أن المقال لا يحتاج إلى مقدمات، بل إنه لا يحتملها، ولا يمكن أن يحتملها، كما أنه لا يحتمل الحشو ولا الإطناب الممل ولا حتى غير الممل، كما أنه ليس بحثًا أكاديميًّا يقوم على التأصيل والتوثيق، أو حشو بعض المصادر هنا أو هناك، كما أنه لا يحتمل تعدد الموضوعات، فهو فكرة مركزة حيث كانت، وكيف جاءت، ومتى انتهت انتهى.

ويجب أن يتحلى كاتب المقال بالموضوعية، فلا يتخذ منه سلاحًا أو سيفًا مسلَّطًا على خصومه الشخصيين، أو يكون المقال وسيلة تكسّب أو ابتزاز، فهذا وذاك مآله إلى السقوط حتمًا ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الرعد، الآية ٧١]، ثم إن المقال شأن أي عمل أدَبي إما أن يكون وظيفيًّا فحسب،

أو إبداعيًّا وظيفيًّا، أو إبداعيًّا وظيفيًّا وإنسانيًّا، فالأول يؤدي رسالةً آنيةً وقتيةً قد تكون مطلوبة في حينها، وقد تكون ملحة لدرجة ألا يُستغنى عنها، غير أن تأثيرها لا يتجاوز وقت نشرها، بل حتى قد لا يدرك وقت نشرها لتسارع الأحداث وسرعة تغطية بعضها على بعض، ومثل هذه الكتابات الوظيفية لا تخلد عملًا، ولا تحفر اسم كاتبٍ في ذاكرة التاريخ، وقد يكون المقال مع بُعده الوظيفي متسمًا بسمة الإبداع لغويًّا وأسلوبيًّا أو فلسفيًّا وفكريًّا أو مُتَّسمًا بهما معًا إلى جانب رسالته الوظيفية، مما يجعل تأثيره أوسع وواقعه أفضل، ومجال الاهتمام به أشمل، ولفت النظر إلى كاتبه أشد، وذلك على قدر ما يكون له من بصمة أو تأثير، فيقال: فلان معني بمقالاته، يحترم ذاته وقلمه وقرَّاءه ومتابعيه، ويقدر لقدمه قبل الخطو موضعها.

أما النمط الأعلى فهو ذلك النمط الذي يمتلك إلى جانب الفكر سحر البيان، وناصية القول، فتتدفق البلاغة منه تدفقًا، ويهجم عليك الحسن منه دفعة واحدة، فلا تدري أجاءك هذا الحسن من جهة العمق في الفكر أم من

جهة جودة الرصف، وحسن السبك، وجرس الإيقاع، مع ما يحمله المقال من جوانب إنسانية تكاد تجري مجرى الحكمة، أو المثل وتتسع الرؤية لدى كاتبه إدراكًا وواقعًا اتساع الكون وجوانبه المترامية، فتتجاوز جميع الأبعاد المحلية إلى أبعاد وآفاق أوسع تنقل صاحبها من المحلية إلى العالمية، وإن كان هذا كله مما يكلف صاحبه كثيرًا من الجهد والمشقة، ويحتاج إلى مزيد من التريث، ومن العناء والمثابرة.

ومن حيث الكم وعدد الأسطر والكلمات، يمكن أن تقسم الكتابة المقالية إلى أربعة ألوان: أولها وهو الأشد قصرًا، ويمكن أن يأتي في سطرين إلى خمسة أسطر، وبما لا يزيد على خمسين كلمة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه همسةً أو لمحةً، وثانيها الخاطرة، وتأتي ما بين ستة أسطر إلى عشرة أسطر، وبما لا يجاوز مائة كلمة، وثالثها المقال، ويكون ما بين أحد عشر سطرًا إلى خمسين سطرًا وبما لا يجاوز خمسمائة كلمة، وما زاد على ذلك فهو مقالة، إذ إن زيادة المبنى تدل على زيادة المحتوى أو المعنى، وليس هذا تقسيمًا رياضيًّا أو نهائيًّا أو قاطعًا، إنما هي محاولة لتقريب المصطلحات ورؤية تطرح للنقاش القابل للمراجعة أو النماء، قد نتفق حولها

أو حول بعضها وقد نختلف وقد نسمع رأيًا آخرَ نراه أدق فنعدل عن رأينا هذا إليه، فهي رؤية للتقريب، ومحاولة التقنين، ووضع الأسس التي يمكن أن تسهم في لفت نظر الناشئة من شباب الكتاب والباحثين إلى بعض الموازين التي يَزِنُونَ بها والمقاييس التي يقيسون عليها.

ويبقى مع كل ذلك ما يعطى لهذا المقال بصمة دون ذاك أو أفضل منه، أو ما يجعل لمقال ما أو كاتب ما رونقًا خاصًّا وسمات مميزة، بحيث تكاد تشير إلى صاحب المقال حتى لو حذف اسمه عن مقاله، فله لازمته، ولقلمه رونقه، ولكلماته جرسها وإيحاؤها ورمزيتها، ولجمله موسيقاها، ولعمق تفكيره وتأمله ما يجعل الجميع يشيرون إليه دون سواه، ولا عزاء للدخلاء.

❊ ❊ ❊

أسئلة مشروعة وأخرى ممنوعة

لا شك أن في نفس كل إنسان منا أسئلة يراها مشروعة وأخرى يراها ممنوعة أو يتوجس أن تكون ممنوعة، أو يطوي عليها نفسه ولو بشق الأنفس، غير أن هذا المنع ليس شرطًا في كل الأحوال أن يكون ناتجًا عن عوامل خارجية كالضغط أو التضييق أو خوف المحاسبة على الكلمة، فقد يكون المنع ذاتيًّا ناتجًا عن شدة الإحساس بالمسئولية، أو الالتزام الأدبي أو الاجتماعي أو المجتمعي أو حتى السياسي، ولأن طرح بعض الأسئلة قد يحمل على غير وجهه، ويُحمّل ما لا يحتمل، فليس كل ما يعلم يقال، أو يناقش عبر الصحف ووسائل الإعلام، أو يطرح على العامة، وقد كان الإمام علي رضي الله عنه يقول: خاطبوا الناس بما يفهمون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟ فلا ينبغي خطاب أحد بما يفوق مستوى إدراكه العقلي والفكري والثقافي

والمعرفي، قطعًا للجدل ودفعًا لسوء التأويل، وبخاصة إذا كان هناك متربصون يحاكمون على الضمائر والنيات، بل قد يختطف بعضهم كلمة من هنا أو جملة من هناك، أو ينتزع هذه أو تلك من سياقها، ليبني عليها حكمًا متيقنًا يريده هو لا قائله ولا كاتبه، أو يتخذ ذلك وسيلة للإثارة أو التشهير، مما جعل كثيرين يؤثرون السلامة، ويرون الصمت أبلغ مائة مرة من الكلام، ولا سيما لو كانوا في موضع لا يحتمل الجدل، فيحتملون ما يحتملون، إيثارًا للعام على الخاص، ولو كلفهم ذلك ألم النيل ظلمًا وعدوانًا منهم، أو رميهم بما هم منه براء.

ومع كل هذه المحاذير فإننا نؤكد أن من يصدق النية لدينه ووطنه، ويثق فيما عند الله ﷻ، ويدرك أن الأمر كله بيده ﷻ وحده دون سواه، وأن ما أصاب الإنسان ما كان ليخطئه، وأن ما أخطأه ما كان ليصيبه، وأن الأمور كلها بالمقادير، حيث يقول نبينا ﷺ: "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف"

(سُنن الترمذي)، فمن تكن ثقته في الله ﷻ كذلك، ويوقن أن مصلحة دينه لا تنفك عن مصلحة وطنه، وأن مصلحة وطنه لا تنفك عن مصلحة دينه، فإنه سيفعل ما في صالحهما دون نظر إلى ما يكون له أو عليه بعد ذلك.

ومن الأسئلة التي نطرحها نجيب على بعضها ونترك للقارئ اللبيب الإجابة على بعضها الآخر: هل الإخوان يفكرون مرة أخرى في العودة إلى المشهد السياسي؟ وهل يفكرون ومعهم غيرهم في اختطاف الخطاب الديني مرة أخرى؟ وهل يحاولون ذلك الآن؟ وهل يحاولون التسلل عبر المؤسسات المختلفة: دينية، وتعليمية، وثقافية، وفكرية، واقتصادية، وخدمية، وإدارية؟ وهل هناك ممانعة كافية وحصانة في جسد هذه المؤسسات تحول دون حدوث الاختراق؟ وهل استوعبنا التجربة المرة لعام الإخوان الأسود بما يجعل لدينا العزيمة والإصرار على عدم السماح لعناصر هذه الجماعة الإرهابية باختراق مؤسساتنا وبخاصة الدينية والثقافية والفكرية مرة أخرى؟ ومنعهم من بث سمومهم فيها أو عبرها؟ وهل نسينا إقصاءهم المقيت وإعلانهم غير الدستوري المكبل الذي

كاد رئيسهم المعزول أن يقول فيه ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[سورة غافر، الآية ٢٩]، بل إنه قد قرر وبتبجح هذا المضمون وأراده واقعًا مُرًّا مفروضًا على المصريين جميعًا لصالح أهله وعشيره وجماعته وقبيله.

وهل لدينا الإدراك الكافي أن قُوى استخباراتية كبرى توظف عناصر هذه الجماعة لتفكيك منطقتنا وتفتيت دولها؟ وهل ندرك أن التحديات ما زالت كبيرة وأن الخطر ما زال داهمًا؟ وهل نقف على مستوى هذه التحديات؟ وهل بقى أي شك في أن هذه الجماعة الإرهابية لا تبقى على دين ولا وطن؟ وأين الدين الذي يدّعونه من هذه البذاءات والصفاقات والشتم والسباب بأقذع الألفاظ التي يعف كل أبي كريم فضلًا عن أي صاحب دين أو حتى مدعيه عن التفوه به أو بأي منها؟

وملخص بعض الإجابات من وجهة نظري أن الخطر ما زال قائمًا ويزداد، وأن الإخوان وأعوانهم يقاتلون من أجل العودة إلى المشهد السياسي عبر تقسيم الأدوار ما بين عملاء خونة يتطاولون علنًا على أوطانهم، ويشهرون بها عبر بعض الفضائيات التي تستضيفها دول راعية

للإرهاب، وأخرى مستخدمة للإخوان كشوكة في ظهر أوطانهم وسلاح لتفتيت دولهم وتمزيقها، وآخرين يغيرون جلودهم كالحيات ويعملون على اختراق المؤسسات والسيطرة عليها من خلال خلاياهم النائمة ومن يستطيعون استقطابهم من المخدوعين والمغرر بهم وأصحاب المطامع والأهواء، مما يتطلب الحيطة والحذر والتنبه لمؤامرات هذه الجماعة الإرهابية وعناصرها وخلاياها الحية والنائمة، ومن يرعاها، ومن يستخدمها، حتى لا نندم حين لا ينفع الندم، فالسعيد من وُعِظَ بغيره، والشقي من وُعِظَ بنفسه، وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "لست بالخب ولا الخب يخدعني"، ويقول نبينا صلى الله عليه وسلم: "لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين" (متفق عليه)، ولن نلدغ إن شاء الله، وسيرد الله عز وجل كيد الإخوان وأعوانهم ومستخدميهم في نحورهم بإذنه سبحانه وتعالى.

❊ ❊ ❊

العواصم والحدود وبناء الدول

العلاقة بين عواصم الدول وحدودها هي علاقة تكامل لا علاقة صراع ولا ينبغي أن تكون، إذ لا غنى لأي دولة من أن يكون لها عاصمة هي القلب والمركز، وأطراف وحدود بمثابة الأجنحة التي لا تعلو الدول ولا ترتفع بدونها، لكن المركز يستحوذ في كثير من دول العالم على بؤرة الاهتمام، فالشواهد والواقع المعيش يؤكدان استحواذ المركز عبر التاريخ على أعلى درجات الاهتمام، غير أن مستوى هذا الاهتمام يختلف بين الدول المتحضرة والدول المتخلفة، فالدول المتحضرة لا يمكن أن تهمل جزءًا من أطرافها أرضًا أو سكانًا فتتركه هملًا أو فرصةً للضياع أو الإهمال أو الاعتداء، أو حتى مجرد التفكير في الانفلات أو الانفصال، وقد دخل أحد الشعراء على سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فأنشده قوله:

إن كنت تحفظ ما يليك فإنمـا عمال أرضك بالبلاد ذئـاب
لن يستجيبوا للذي تدعو لـه حتى تجلّد بالسيوف رقـاب

على أن تنمية الأطراف والمناطق الحدودية لا تقع على عاتق الحكومات وحدها أو القيادة السياسية وحدها، إذ إن العناية والاهتمام بهذه الأطراف والعمل على تنميتها مسئولية تضامنية بين جميع مؤسسات الدولة، سواء المؤسسات الرسمية، أم منظمات المجتمع المدني، أم رجال الأعمال، فالاستثمار، والتعليم، والصحة، والإسكان، والثقافة، والأوقاف، والآثار، وسائر الوزارات والهيئات، والجمعيات العاملة في مجال الخدمات الاجتماعية، ورجال الأعمال الوطنيون، كل هؤلاء يجب أن يولوا اهتمامًا خاصًّا بجميع أطراف الدولة وبخاصة الحدودية منها، وجعل ذلك أولوية واعتباره قضية أمن قومي من جهة، وقضية تنموية من جهة أخرى، إذ ينبغي أن نعمل على تحويل كل أطراف الدولة ومناطقها الحدودية إلى مناطق جاذبة لا طاردة، ففي حالة عدم اهتمام دولة ما بأطرافها يضطر أبناء هذه الأطراف إلى التوجـه نحـو المركز والتمركز به،

مما يشكل ضغطًا غير عادي على المركز وضواحيه، ويخلق كثيرًا من الأحياء العشوائية حوله، ويسهم في صنع نظام طبقي تنتج عنه مع مرور الزمن أمراض ومشكلات اجتماعية تحتاج إلى حلول غير تقليدية لعلاجها.

أما في ظل اهتمام الدول بالاستثمار في أطرافها ومناطقها الحدودية، وتوفير الخدمات اللازمة لأبنائها من: الإسكان، والصحة، والتعليم، والثقافة، وسائر الخدمات التي تطلبها مقومات الحياة المستقرة بأرضهم وموطن نشأتهم، مع توفر فرص العمل والإنتاج فإن ذلك كله يؤدي إلى ارتباط أبناء هذه المناطق بأرضهم، وحفاظهم على كل ذرة رمل أو تراب من ثراها الندي، مع ولاء وانتماء وطني خالص.

وفي حالة توافر عوامل جذب وحوافز للعمل بهذه المناطق والاستثمار الجاد فيها كما يحدث الآن من اهتمام الدولة بمناطق سيناء ومطروح والإسماعيلية الجديدة وحلايب وشلاتين والوادي الجديد، ومناطق الظهير الصحراوي بصفة عامة، فإن هذه المناطق ستتحول إلى مناطق جاذبة، مما يحدث توازنًا كبيرًا في التوزيع الجغرافي،

والسكاني، ويوفر حياةً كريمةً لأبناء هذه المناطق، ويخفف الضغط على المركز وعلى ما يُقدم به من خدمات لا غنى عنها للمقيمين به، أو ما تتطلبه طبيعة العواصم ومركز الثقل السياسي والاقتصادي بالعالم كله، من الرقي بها إلى درجة تجعل منها عامل جذب سياحيّ وإبهار حضاري ودلالة على عظمة الشعوب ورقيها.

❊ ❊ ❊

مفهوم الأمن القومي

لا شك أن استقرار أي دولة إنما يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحفاظ على أمنها القومي، بل بمدى حرص كل فرد من أفرادها على مستوى هذا الأمن، وعدم المساس به، ولا سيما من كان في موضع اتخاذ القرار، وعلى وجه أخص القرارات التي تتصل بالتعامل مع العالم الخارجي، أو تؤثر في هذا التعامل.

وإذا كان الأمن القومي لأي دولة مستقلة ذات سيادة خطًّا أحمرَ لا يمكن تجاوزه أو التسامح تجاهه فإن الحفاظ على عدم المساس بهذا الخط أو السماح بتجاوزه يقتضي وعيًا وثقافة وتثقيفًا مستمرًا وعلميًّا ومنهجيًّا بمفهوم الأمن القومي، وأستطيع أن أقول: إن عقد دورات مكثفة في ذلك لكل من يتولى موقعًا أو منصبًا قياديًّا بات أمرًا ضروريًّا شديدَ الإلحاح، إذ لا تكفي المهارات الفنية أو

التقنية أو الإدارية في تكوين رؤية شاملة تؤدي إلى الاتجاه والمسار الصحيح، ما لم تكن هناك رؤية أبعد ونظرة أشمل لأثر أي قرار يتخذ على الأمن القومي العام.

وقد لا يخطر ببال بعض الناس أن ما يتخذه من قرارات أو ما يقوم به من تصرفات أو ما يقيمه من علاقات يمكن أن يكون ذا أثر في الأمن القومي، وقد لا يكون ذلك عن سوء قصد، وإنما لعدم الإلمام بمعطيات الأمن القومي، أو لأن هذه المعطيات غير حاضرة في شعوره بالقدر الكافي، على أن المرحلة والظروف التي تمر بها البلاد والمنطقة والعالم تحتاج من المواطن العادي فضلًا عن المسئول أو متخذ القرار أن يكون على أعلى درجة من الوعي بالأمن القومي لبلاده، سواء في اتخاذ القرارات، أم في إقامة العلاقات، أم في عقد الاتفاقيات والبروتوكولات.

وإذا كان مستوى الوعي بأهمية وخطورة كل ما يتصل بالأمن القومي متفاوتًا بين شخص وآخر لاعتبارات كثيرة من أهمها: الثقافة، والحرص على المصلحة الوطنية، وحمل هم الوطن، وجعل المصلحة العليا للوطن فوق كل اعتبار، فإن الأمر يتقضي:

أ- المزيد من التثقيف والتوعية بمفهوم الأمن القومي، من خلال الدورات التدريبية المكثفة لكل من يتولى عملًا قياديًّا.

ب- التوعية بمفهوم الأمن القومي وضرورة الحفاظ عليه من السياسيين والمفكرين والكُتَّاب والمثقفين ووسائل الإعلام، وبخاصة من يمتلكون الرؤية الثاقبة والوعي الناضج بمفهوم هذا الأمن، واعتبار ذلك أحد أهم عوامل استقرار البلاد.

ج- ضرورة التنسيق المسبق مع الجهات المختصة بذلك قبل عقد أي اتفاقيات أو بروتوكولات مع أي جهة خارجية؛ تحسبًا لأي اختراق أو تأثير على مصالحنا القومية، حتى لو كان ذلك عن غير قصد.

مع التأكيد على أن مفهوم الأمن القومي لأي بلد يقتضي الإلمام بالأحوال السياسية الداخلية والخارجية، الإقليمية والدولية، فعمقنا العربي، وعمقنا الأفريقي، وعالمنا الإسلامي، وعلاقتنا الدولية، كل ذلك يجب وضعه في الاعتبار عند اتخاذ القرارات المهمة والحيوية، ودراسة مدى

تأثيرها على هذه العلاقات، ومردودها الإيجابي أو السلبي على كل منها، مع دراسة الأولويات، ومعرفة مواطن الثقل وهوامش الحركة في كل اتجاه.

ولا شك أن العلاقات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والثقافية، والفنية، والإعلامية إنما يرتد أثر بعضها على الآخر، إذ لم يعد ممكنًا فصل أي منها عن الآخر فصلًا باتًّا، بحيث تتحرك كل مؤسسة وكأنها عالم خاص، إنما ينبغي أن يكون تصرف كل مؤسسة ناظرًا بعين اعتبار قوية على أثر تصرفه على المؤسسات الوطنية الأخرى، ولا شك أن هذا الأمر يقتضي حسًّا وطنيًّا عاليًا، ودربةً وخبرةً كبيرةً، وأن نعمل جميعًا بروح الفريق، وأن ننطلق من قاعدة: "عموم الفهم وخصوصية التكاليف"، بأن يكون كل مسئول على مستوى مسئوليته الكاملة بالمهام المسندة إليه واختصاصه بها وعلى مستوى عالٍ من الفهم والوعي بعمل الفريق الذي يعمل معه، ومقتضيات اتخاذ القرار في المؤسسة التي ينتمي إليها.

مع التأكيد على أن الدول لا تستقر بمجرد النوايا الحسنة دون الوعي والتخطيط واليقظة، في عالم من لم يتذأب

فيه أكلته الذئاب، وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "لست بالخب ولا الخب يخدعني"، وكان المغيرة بن شعبة يقول: "لولا الإسلام لمكرت مكرًا لا تطيقه جزيرة العرب"، فلا بد مع النية الحسنة من صحة العمل وإتقانه، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف، الآيتان ١٠٣، ١٠٤]، ولذا أكد القرآن الكريم على شرطي الأمانة والكفاءة، إذ لا تكفي إحداهما عن الآخرى، وذلك حيث يقول سبحانه وتعالى على لسان ابنة شعيب عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [سورة القصص، الآية ٢٦]، وحيث يقول سبحانه وتعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف، الآية ٥٥].

* * *

التدين الشكلي والتدين السياسي

لا شك أن ظاهرة التدين الشكلي وظاهرة التدين السياسي تعدان من أخطر التحديات التي تواجه المجتمعات العربية والإسلامية، سواء من هؤلاء الذين يركزون على الشكل والمظهر ولو كان على حساب اللباب والجوهر، وإعطاء المظهر الشكلي الأولوية المطلقة، حتى لو لم يكن صاحب هذا المظهر على المستوى الإنساني والأخلاقي الذي يجعل منه القدوة والمثل، ذلك أن صاحب المظهر الشكلي الذي لا يكون سلوكه متسقًا مع تعاليم الإسلام يُعد أحد أهم معالم الهدم والتنفير، فإذا كان المظهر مظهر المتدينين مع ما يصاحبه من سوء المعاملات، أو الكذب، أو الغدر، أو الخيانة، أو أكل أموال الناس بالباطل، فإن الأمر هنا جد خطير، بل إن صاحبه يسلك في عداد المنافقين، يقول نبينا ﷺ: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ

أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ"(متفق عليه)، وكذلك من يحصر التدين في باب العبادات والاجتهاد فيها مع سوء الفهم للدين والإسراف في التكفير وحمل السلاح والخروج على الناس به كما حدث من الخوارج الذين كانوا من أكثر الناس صلاةً وصيامًا وقيامًا غير أنهم لم يأخذوا أنفسهم بالعلم الشرعي الكافي الذي يحجزهم عن الولوغ في الدماء فخرجوا على الناس بسيوفهم، ولو طلبوا العلم أولاً كما قال الإمام الشافعي رحمه الله لحجزهم عن ذلك، فالإسلام دين رحمة قبل كل شيء وكل ما يبعدك عن الرحمة يبعدك عن الإسلام، والعبرة بالسلوك السوي لا بمجرد القول، وقد قالوا: حال رجل في ألف خير من كلام ألف لرجل.

على أن العبادات كلها لا تؤتى ثمرتها إلا إذا هذَّبت سلوك وأخلاق صاحبها، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية ٤٥]، ومن لم ينهه صيامه عن قول الزور فلا صيام له، يقول نبينا صلى الله عليه وسلم:

"مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ للهِّ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ" (صحيح البخاري)، ولاَ يقبل الله ﷻ في الزكاة والصدقات إلا المال الطيب الطاهر، يقول نبينا ﷺ: "إِنَّ اللهَّ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا" (رواه مسلم)، ويقول ﷺ: "لاَ تُقْبَلُ صَلاَةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلاَ صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ" (صحيح مسلم)، وقبول الحج مرهون بالنفقة الحلال وحسن السلوك، "مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَهيئته يَوْم وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" (مسند أحمد)، وذكر ﷺ: "الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ"(صحيح مسلم).

وأخطر من هذا التدين الشكلي التدين السياسي، ونعني به هذا الصنف الذي يتخذ الدين وسيلة ومطية للوصول إلى السلطة من خلال استغلال العواطف الدينية وحب الناس وبخاصة العامة لدينهم، وإيهامهم بأن هدفه من الوصول إلى السلطة إنما فقط هو خدمة دين الله ﷻ والعمل على نصرته والتمكين له، ومع أننا لا نحكم على النوايا ولا

نتدخل في أمر النيات، فهي ما بين العبد وخالقه، وكل ونيته، فإن التجربة التي عشناها والواقع الذي جربناه مع جماعة الإخوان الإرهابية، ومن دار في فلكها أو تحالف معها من جماعات الإسلام السياسي، أكد لنا أمرين، الأمر الأول: أن القضية عندهم لم تكن قضية دين على الإطلاق إنما كانت قضية صراع على السلطة بشَرَهٍ، ونَهَمٍ لم نعرف لهما مثيلًا، وإقصاء للآخرين في عنجهية، وصلف، وغرور، وتكبر، واستعلاء، بما نفر الناس منهم ومن سلوكهم الذي صار عبئًا كبيرًا على الدين، وأصبحنا في حاجة إلى جهود كبيرة لمحو هذه الصورة السلبية التي ارتسمت في أذهان كثير من الناس رابطة بين سلوك هؤلاء الأدعياء وبين الدين، الأمر الآخر: أنهم أساءوا لدينهم، وشوهوا الوجه النقي لحضارته الراقية السمحة، وأثبتوا أنهم لا أهل دين ولا أهل كفاءة، وإلا فهل من الدين أن يخون الإنسان وطنه، وأن يكشف أسراره ويبيع وثائقه؟ وهل من الدين التحريض على العنف، والقتل، والفساد، والإفساد، وتشكيل ما يسمى بـ"اللجان النوعية" التي تعيث في

الأرض فسادًا في عمالة وخيانة غير مسبوقة، خيانة للوطن، وعمالة لأعدائه؟ وقد أكدت وما زلت أؤكد أن هذه الجماعة الإرهابية التي وظفت الدين لخداع الناس، وتحقيق مآربها السلطوية هي على استعداد للتحالف حتى مع الشيطان لتحقيق أهدافها ومطامعها السلطوية على حساب دينها أو حساب وطنها أو حساب أمتها.

❊ ❊ ❊

الخلاف الفقهي والخلاف السياسي

تحدثنا عن العلاقة بين الدين والسياسة، وأكدنا مرارًا على أهمية ترسيخ مفهوم الدولة الوطنية والبناء الوطني الصلب الذي يسع الجميع على أساس الحقوق والواجبات الوطنية المتبادلة، وعلى عدم المتاجرة بالدين أو استغلاله في المصالح السياسية أو الحزبية.

والطبيعي والمفترض والمنتظر أن يعمل العلماء على ما يبني لا ما يهدم، وما يجمع ولا يفرق، وأن يفرقوا بين ما هو ديني شرعي قطعي الثبوت والدلالة، وبين ما هو ظني الدلالة يحتمل الرأي والرأي الآخر، ويُعد الخلاف فيه سعة للأمة، وسعة عليها، وكما قال سيدنا عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: ما يسرني أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا، أي لم يختلفوا في الرأي وفهم النص؛ لأنهم لو لم يختلفوا لكان ذلك مشقة على الناس، إذ إن أكثر ما يتصل بالمعاملات

وتنظيم شئون الناس ونظام حياتهم مما فيه متسع كبير، وقد تختلف الفتوى فيه باختلاف الزمان أو المكان أو الأحوال، فما كان راجحًا في عصر وفق ظروف هذا العصر قد يصبح مرجوحًا إذا تغير الزمان، وما تكون الفتوى فيه راجحة في مكان ما نظرًا لطبيعة هذا المكان، فإنها قد تصبح مرجوحة إذا تغير المكان أو الحال واستدعى الأمر اجتهادًا جديدًا يجعل المرجوح راجحًا، والراجح مرجوحًا.

والمنتظر من العلماء والفقهاء والمفكرين العقلاء في كل زمان ومكان أن يكونوا رجال فكر وعقل، ودعاة أمن وسلام بحق وصدق وإخلاص، مستحضرين منهج الإسلام في ترسيخ أسس التعايش السلمي بين البشر جميعًا، مؤثرين المصالح العليا للإنسانية على مصالحهم الشخصية الضيقة، ولنا في منهج النبي ﷺ الذي رسخه لأسس التعايش بين أهل المدينة جميعًا على اختلاف أديانهم وأعراقهم وقبائلهم أفضل الأسوة، وذلك حين أعلن ﷺ أن المسلمين مع يهود المدينة الذين عددهم النبي ﷺ قبيلة قبيلة، أمة واحدة، وجاء الإنصاف الكامل حين قال النبي ﷺ "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم" (سيرة ابن هشام)،

كما آخى ﷺ بين أصحابه على اختلاف أعراقهم وقبائلهم، مع ما كان بين الأوس والخزرج من إحن وعداوات تاريخية، وهو ما ذكره الحق ﷻ في قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال، الآية ٦٣].

فالأصل أن يقود العلماء التوافق لا أن يقودوا الخلاف، ولا أن يُزكوا جذوة الشقاق، ولكن شطط بعض العلماء والمفكرين في الذهاب إلى أقصى الطرف، وبحث بعضهم عن الشاذ من الآراء، وربما حب الظهور أحيانًا، ومجاملته السلطات أحيانًا أخرى، ومسابقة بعض المحسوبين على العلماء في إذكاء التطلعات التوسعية لبعض الدول وإلباسها ثوب الواجب الديني، إنما يسهم في بث الفرقة، وربما تأجيج الفتن على حساب جمع الشمل الذي لا غنى عنه للأمة، وللمنطقة، ولتحقيق أمن وسلام العالم، إن كنا جادين في البحث عن هذا السلام والعمل على تحقيقه، وتخليص الديني من السياسي، والمذهبي من التوظيف السياسي للدين أو للمذهبية.

فبدل أن يكون صوت العلماء هو صوت الحكمة والعقل ووحدة الصف ونبذ الشقاق دائمًا، صار صوت بعض المذهبيين المتعصبين منهم غير المدركين لفقه الواقع صوت فرقة وشقاق في بعض الأمور، وربما كانت الرغبة في إرضاء بعض الحكام، أو الأهل والعشير، أو النصير والأتباع والمريدين، وراء التشبث ببعض الآراء أو الفتاوى، دون النظر في العواقب الوخيمة التي يمكن أن تترتب على تبني الآراء الشاذة أو العصبية العمياء دون إعمال حقيقي للفكر والعقل والمنطق.

علينا جميعًا أن ندرك أن القضاء على الآخر والمختلف ومحوه من الذاكرة الإنسانية يُعد أمرًا مستحيلًا ومخالفًا لسُنن الله الكونية، الذي خلق الناس مختلفين، يقول ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾ [سورة هود، الآيتان ١١٨، ١١٩]، كما أن محاولة محو الآخر أو تقزيمه ستقابل بمحاولة مماثلة، فيدخل العالم كله في صراعات دينية ومذهبية لا تبقي ولا تذر، ولا تخلف سوى الخراب والدمار والهدم والإفساد.

إن الطبيعي أن يكون العلماء أعلام استنارة، وأعلام سلام، وأعلام حوار، وأعلام تقارب، وأعلام وفاق لا عناوين شقاق، يجمعون ولا يفرقون، يبنون ولا يهدمون، وهو ما يجب أن نسعى جميعًا إليه، ونعمل على تحقيقه.

❊ ❊ ❊

تغييـــب العقـــل

العقل واحد من أهم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، بل إنه النعمة التي تميزه عن غيره من المخلوقات، وهو مناط الحساب والتكليف، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد تكرر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، في مواضع متعددة من كتابه العزيز، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [سورة طه، الآية ٥٤، والآية ١٢٨]، ولما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [سورة آل عمران، الآيتان ١٩٠، ١٩١]، قال نبينا ﷺ: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها" (صحيح ابن حبان).

ويستحث القرآن الكريم عقولنا للتأمل والتدبر في مواضع عديدة، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [سورة النور، الآيتان ٤٣، ٤٤]، ويقول ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [سورة الفرقان ٤٥، ٤٦]، ويقول ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة الروم، الآية ٩]، ويقول ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ

مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [سورة فاطر، الآيتان ٢٧، ٢٨].

وكم استحث النبي ﷺ أصحابه على التفكير، في مثل قوله ﷺ: "إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟ قَالَ: فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ الله: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ" (صحيح البخاري)، ويقول ﷺ لأصحابه: "أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" (صحيح مسلم)، ويقول ﷺ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا" (صحيح البخاري).

وفي ذلك كله ما يؤكد عناية الإسلام بالعقل واحترامه له وتقديره لقيمته، وتوجيهه للعناية به والحفاظ عليه، وهو ما يجب أن نتنبه له، فنعمل عقولنا لا نعطلها، وألا نقع أو نخضع لمحاولات التنويم المغناطيسي أو تغييب عقولنا عن واقع الحياة والتأمل فيها، والعمل على حسن قيادتها، ولنحرر مفهومًا واحدًا من المفاهيم التي تحترم العقل وهو مفهوم التوكل الصحيح لا التواكل المميت، فحسن التوكل يعني حسن الأخذ بالأسباب، من منطلق قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[سورة الأنفال، الآية ٦٠]، علمًا بأن القوة هنا أعم من أن تكون عسكرية، حيث استخدم النص القرآني كلمة "قوة" نكرة لإفادة العموم والشمول، لتشكيل القوة العسكرية والاقتصادية والثقافية والفكرية والجسدية، وكل ما يحقق هذه القوة أو يؤدي إليها أو يسهم في تحقيقها.

فحسن التوكل يعني أن نأخذ بأقصى الأسباب، ثم نفوض أمر النتائج لله ﷻ، يقول نبينا ﷺ: "لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا" (سُنن الترمذي)، قال أهل العلم إن الطير

تغدو وتروح، وتغـدو مـن أوكـارها وأعشـاشها مبكرة للبحث عن رزقهـا، ثم تعـود خمـاصًا شبعى، فهي تغدو وتروح، ولا تمكث في أعشاشهـا، وتسـأل الله أن يبعث برزقها إليها في مكانها دون أن تأخذ بالأسباب، وكان سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ يقول: "لا يَقعُدنَّ أحدُكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علِمَ أن السماءَ لا تُمطِرُ ذهبًا ولا فضّة".

❊ ❊ ❊

تنافس الأقران والمعاصرين وغير المتناظرين

التنافس نوعان محمود، ومذموم، أما المحمود فهو التنافس في الخيرات والمسابقة فيها، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [سورة الحديد، الآية ٢١]، ويقول نبينا ﷺ: "لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا" (متفق عليه)، أي إن كان من شيء يحسد عليه ويتنافس فيه فهو في هذين الأمرين، أن يكون الرجل أهلًا لشكر نعمة المال حق الشكر بإنفاقه آناء الليل وأطراف النهار في سبيل الله، أو أن يكون من أهل الحكمة والعلم يقضي بهما ويعلمهما للناس.

وقد كان الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم- يتنافسون في الخيرات غاية التنافس، فقد أَخْرَجَ أبو داودَ، والترمذيُ عن سيدنا عُمَرَ بْن الْخَطَّابِ ﵁ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللهَّ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا"، وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟، قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﵁: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟، قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﵁: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟، قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﵁: أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ" (صحيح مسلم).

وأما التنافس المذموم فهو المؤدي إلى التحاسد والتباغض والخلاف والشقاق، المتجاوز الغبطة التي هي تمني مثل

ما أصاب الغير من الخير للنفس إلى الحسد الذي هو تمني زوال النعمة عن الآخرين، وهو القائم على محاولة هدم الآخرين وتحطيمهم وعرقلة مسيرتهم، وقد يتجاوز ذلك إلى الانشغال بهدم الآخرين عن بناء النفس، يقـول القـاضي علي بن عـبد العزيز الجرجـاني في مقـدمة كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه": وأهـل النقـص رجـلان: رجل أتاه التقصيرُ من قبَله، وقعَد به عن الكمال اختيارُه، فهو يسهم الفضلاءَ بطبعه، ويحنو علي الفضل بقدر سهمهِ؛ وآخرُ رأى النقص ممتزجًا بخِلقَته، ومؤثَّلًا في تركيب فطرته، فاستشْعر اليأس من زواله، وقصُرتْ به الهمةُ عن انتقاله؛ فلجأ إلى حسَد الأفاضل، واستغاث بانتقاص الأماثل؛ يرى أن أبلغَ الأمور في جبر نقيصته، وستْر ما كشفه العجزُ عن عورته اجتذابُهم إلى مُشاركته، ووسمُهم بمثل سِمَتِه.

وغالبًا ما يكون التنافس الذي قد يصل عند بعض الناس إلى حد التناحر بين الأقران والمتناظرين، فقد يظن بعضهم أن الأماكن أو المناصب أو المكاسب محصورة بين الشخص ومن ينافـسه فـإما أنا وإمـا أنت، متناسين أو متجاهلين ما

يخبئه ويضمره القدر في الأعمار وتقلبات الأيام والأحوال والأشخاص، وأن الأمر كله بيد الله وحده، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن ما كان للشخص سيأتيه، ولا يغني حذر عن قدر، وأن الرزق ماديًّا أو معنويًّا لا يرتبط بالذكاء أو المكيدة أو التدبير، وإلا هلكن إذن من جهلهن البهائم على حد تعبير الشاعر العباسي أبي تمام.

فعلى العاقل أن يدرك أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه، "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام، وجفت الصحف" (سُنن الترمذي)، ويقول الحق ﷻ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية ٥١]، ويقول ﷻ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[سورة الزمر، الآية ٣٨].

وإذا كان التناسب يقتضي أن يكون العنوان تنافس الأقران والمعاصرين والمتناظرين فإني آثرت كسر المألوف إلى التعبير وعن قصد بغير المتناظرين ذلك أن دوائر التحاسد والتباغض ربما اتسعت لدى بعض من اسودت قلوبهم ونفوسهم واتشحت بأشد درجات السواد قتامة، وأعلى درجات الحسد والحقد سمًّا زعافًا، فشملت لديهم المتناظرين وغير المتناظرين قافزين على كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية التي تدعو إلى حب الخير للناس جميعًا، حيث يقول نبينا ﷺ: "لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" (صحيح البخاري)، ويقول ﷺ: "مَنْ أَحَبَّ اللهَ، وَأَبْغَضَ لله، وَأَعْطَى لله، وَمَنَعَ لله، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ" (سُنن أبي داود)، ويقول ﷺ: "ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (متفق عليه)، فما أحوجنا إلى هذه الأخلاق الكريمة المنبثقة من الروح الإيمانية الصافية بما يهيئ لحياة آمنة مستقرة لا قلق فيها ولا اضطراب ولا تحاسد ولا بغضاء.

الجمال الحقيقي والصداق الحقيقي

الجمال الحقيقي هو جمال الجوهر، وجمال النفس، وجمال الروح، وجمال الخلق، وجمال العقل، فإذا انضم إلى هذا الجمال جمال المظهر، فما أجمل الإنسان إذا سرك مظهره ومخبره معًا، غير أن جمال النفس ومظهرها وسموها هو المقدم وهو الأعلى قيمة والأبعد أثرًا وعليه مدار التفاضل الحقيقي، حيث يقول نبينا ﷺ: "إِنَّ اللهَّ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" (صحيح مسلم)، ويقول أديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي في مقال له تحت عنوان "في فلسفة المهر": إن خير النساء من كانت على جمال وجهها في أخلاق كجمال وجهها، وكان عقلها جمالًا ثالثًا، فهذه إن أصابت الرجل الكفء يسرت عليه، ثم يسرت، ثم يسرت؛ إذ تعتبر نفسها

إنسانًا يريد إنسانًا، لا متاعًا يطلب شاريًا، وهذه لا يكون رخص القيمة في مهرها، إلا دليلًا على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها.

ويقول نبينا ﷺ: "إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ ودِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ" (سُنن ابن ماجه)، فقد اشترط النبي ﷺ الدين على أن يكون مرضيًّا لا أي الدين كان، والخلق على أن يكون مرضيًا لا أي الخلق كان، وقال ﷺ: "تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ" (متفق عليه).

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا الدين والخلق أولًا؟ وقبل جمال الشكل والمظهر، والإجابة أن الجوهر قبل المظهر، وأن الجمال أمر نسبي وقابل للتغيير أو الزوال، أما الدين والخلق فهما المعدن الأصيل الذي لا يصدأ أبدًا.

فماذا لو كان الاختيار على أساس الجمال فحسب، والجمال أمر نسبي وما تراه جميلًا اليوم ربما لا تراه جميلًا غدًا، وماذا لو رأى الشاب بعد ذلك امرأة أجمل أو رأت

المرأة شابًا أجمل منه؟ بل ماذا لو عرض لهذا الجمال ما يذهبه أو يشوهه؛ كأن تعرضت الزوجة أو الزوج أو الفتى الوسيم لحادث أو لمرض أذهب جماله وبهاءه فكيف تكون الحياة آنذاك؟ وهي قد بنيت أصلًا على الجمال الظاهري لا غير.

أما الدين والخلق فهما المعدن النفيس الذي يتجدد بتجدد الأيام، فحتى لو ذهب المال أو ذهب الجمال فإنما يبقى الدين والخلق، فصاحب الدين والخلق إن أحب زوجه أكرمها وإن بغضها لم يبخسها حقها، حتى صداق المرأة الحقيقي فهو ليس ما يقدم إليها من مال أو ذهب أو صداق إنما هو ما تجده من حسن المعاملة، يقول الرافعي: الصداق الحقيقي ليس ذلك المال الذي يُدفع إلى المرأة وهي في بيت أبيها قبل أن تذهب إلى بيت زوجها، صداقها الحقيقي معاملتها التي تجدها في بيت زوجها بعد أن تُحمل إلى داره؛ مهرها معاملتها، تأخذ منه يومًا فيومًا، فلا تزال بذلك عروسًا على نفس زوجها ما دامت الحياة بينهما.

أما ذلك الصداق من الذهب والفضة، فهو صداق العروس الداخـلة على الجسم لا على النفس؛ أفلا تراه

كالجسم يهلك ويبلى؟ أفلا ترى هذه الغالية - إن لم تجد النفس في رَجُلها - قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد؟!، وما الصداق في قليله وكثيره إلا كالإيماء إلى الرجولة وقدرتها، فهو إيماء، ولكن الرجل قبْل.

إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفًا، والسيف إيماء إلى القوة، غير أنه ليس كل ذوي السيوف سواء، وقد يحمل الجبان في كل يد سيفًا، ويملك في داره مائة سيف، فهو إيماء، ولكن البطل قبْلُ، ولكن البطل قبْلُ.

إذن فالقضية ليست في الشكل فحسب إنما هي في المعنى والمضمون، وليس الجمال الحقيقي هو جمال المظهر، إنما هو جمال الجوهر، وليس الصداق الحقيقي هو المال والذهب إنما هو في الدين والخلق وحسن المعاملة.

❊ ❊ ❊

المنافقون الجُدُد

النفاق داء مهلك للأفراد والأمم، وهو أشد خطرًا من الكفر والشرك، وذلك حيث يقول الحق ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء، الآيتان ١٤٥، ١٤٦].

وللنفاق علامات، من أهمها: الكذب، والخيانة، والغدر، وخلف الوعد، يقول نبينا ﷺ: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ" (متفق عليه)، ويقول ﷺ: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ" (متفق عليه).

ويبين لنا القرآن الكريم جانبًا من خصال وأحوال المنافقين في مواضع عديدة، منها:

١ - أنهم يكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ [سورة التوبة، الآيتان ٨٦،٨٧]، ويقول ﷻ: ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾ (الأحزاب ١٣)، ويقول ﷻ: ﴿ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [سورة الأحزاب، الآية ٢٠].

٢ - أنهم يقيسون كل أمورهم بقدر ما يتحقق لهم من منافع، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴾[سورة التوبة، الآية ٥٨]، ويقول ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ

وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [سورة الحج، الآية ١١].

٣ - الفساد والإفساد وكثرة الحلف الكاذب، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [سورة البقرة، الآيتان ٢٠٤، ٢٠٥].

٤ - تأليب الرأي العام وبث الوهن في نفوس المؤمنين الصادقين؛ حيث يقول الحق ﷻ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة التوبة، الآيتان ٤٦،٤٧]، ويقول ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۚ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [سورة التوبة، الآية ٨١]، ويقول ﷻ: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة الأحزاب، الآية ١٨].

٥ - التحالف مع الأعداء والتواصل معهم على حساب الدين والوطن، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾[سورة المائدة، الآية ٥٢]، ويقول ﷻ: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء، الآيتان ٧٢،٧٣].

ومع أن علامات النفاق من الكذب، والخيانة والغدر، ونقض العهود والمواثيق، وتأليب الرأي العام، وخيانة الدين، إنما هي صفات المنافقين قديمًا وحديثًا، فإن المنافقين الجُدُد قد ضموا إلى ذلك ضروبًا جديدة من الخداع من أبرزها لبس مسوح الدين والمتاجرة به واستغلاله لتحقيق مصالح الجماعات التي تريد أن تتخذ من الدين مطية إلى السلطة، متدثرة في ألوان شتى من التدين الشكلي والتدين السياسي، إضافة إلى ما يتسم به المنافقون الجدد من خيانة الوطن وتحقيره وبيعه بثمن بخس.

الطبيب الإنسان

كم من طبيب إنسان بكل ما تعنيه كلمة الإنسانية من معان عرفته، ووددت لو ذكرت كل واحد منهم باسمه إكرامًا لإنسانيته، غير أن المقام سيطول بذكر كل من عرفت من الأطباء النبلاء، فالطب مهنة إنسانية قبل كل شيء، وقد سموا الطبيب حكيمًا، والأطباء حكماء، لما هم عليه من الحكمة، وما يجب أن يتسموا به منها، وعلى الرغم من أني مدين لأكثر من تعاملت معهم من الأطباء بكرم الطباع وحسن المعاملة، ولم أجد من أحدهم إلا ما يحمل على المودة والتقدير، فإنني من واقع انشغالي بترسيخ كل ما هو إنساني أُذَكّر بما يأتي:

١- أن المريض إنسان مكروب، ولا كرب أشد من المرض، وأصعب من الألم، فالمريض إنسان في موضع ضعف شديد مهما كانت رتبته أو مكانته العلمية أو الأدبية

أو السياسية أو إمكانياته المالية، ونبينا ﷺ يقول: "مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ" (متفق عليه)، وليست الكربة في المال أو ضيق ذات اليد فحسب، بل إن كربة الألم أشد وأوجع، بدليل أن الإنسان مهما كانت درجة فقره أو فاقته فإنه يكون على أتم استعداد لبيع كل ما يملك بما فيه بيته الذي يأويه، بل على استعداد أن يستدين بأي طريق كان ليعالج نفسه أو زوجه أو ولده أو أحد أبويه.

٢ - أن المريض أكثر الناس حاجة إلى بث الأمل والطمأنينة في نفسه ولو مع دنو أجله، كما أنه في حاجة إلى الكلمة الرقيقة، والبسمة الحانية، وإذا كانت البسمة في وجه أخيك الإنسان صدقة، فإنها في وجه المريض ألزم وأوجب وأعظم أجرًا وثوابًا، كما أن المريض معذور بمرضه وإن ألحَّ في السؤال لجهله، ألم يقل الحق ﷻ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [سورة النور، الآية ٦١]، بإطلاق لفظ المريض دون تفرقة بين مريض ذكي وآخر غبي، أو مريض عالم وآخر جاهل، أو مريض مثقف وآخر غير مثقف؟!.

٣ - أن المريض قد يجتمع عليه المرض والعوز فيكون أكثر حاجة إلى الرحمة والشفقة، والصبر عليه، وجبر خاطره، وعدم الاشمئزاز منه، فهذا المريض كفيله وشفيعه هو ربه الذي اختبره وامتحنه بما هو فيه من فقر ومرض، ألم يقل الحق ﷻ في الحديث القدسي: "يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟!" (صحيح مسلم).

٤ - ضرورة أن يتذكر الطبيب ما أنعم الله عليه به من نعم الذكاء والتعلم والتفوق والتوفيق، وأن يعلم أن لكل هذه النعم شكرًا يجب أن يؤدى، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[سورة إبراهيم، الآية ٧]، وأفضل شكر للنعمة هو ما يكون من جنسها والإحسان فيها، فشكر المهارة في الطب يكون بحسن معاملة المرضى وإكرام الفقراء والمحتاجين منهم، وأن نتذكر جميعًا أن من لا يرحم لا يُرحم، وأن الرحمة لا تنزع إلا من شقي.

أن ما كان مكتوبًا لأي إنسان منا من المال أو غيره فسوف يأتيه دون زيادة أو نقصان، وأن ما أصابنا لم يكن ليخطأنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا، ولن تموت نفس حتى تستوفى أجلها ورزقها، وأن كل شيء عند الله ﷻ بقدر ومقدار.

٥ - أن كفاية الأمة في جميع مجالات الحياة إنما هو فرض من فروض الكفايات، إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وإن لم يقم به أحد أثم كل من علم وكان قادرًا على أن يقوم بفرض الكفاية ولم يفعل، فكما أن تعليم علوم الدين وأصوله فرض كفاية على العلماء، ومحو أمية غير المتعلمين فرض كفاية على المعلمين، فإن علاج المرضي فرض كفاية على الأطباء في كل مجتمع من المجتمعات قرية، أو مدينة، أو دولة، كل على قدر استطاعته، على أن يكون الأمر على أعلى درجات الهمة والاستطاعة لا على أقلها ولا أدناها، فلا عليك إن خصصت جزءًا من وقتك لعلاج غير القادرين في مصحتك أو مشفاك.

❊ ❊ ❊

سلوك وسلوك

لا شكَّ أن سلوك الشخص يعكس مدى ثقافته، ومدى أخلاقه، ومدى تربيته، ومدى حضارته، وكذلك سلوك الأمم والشعوب يعكس مدى قيمها وتحضرها، بل إن سلوك الشخص يعكس مدى إيمانه بوطنه، وإيمانه بربه، لأنه لو راقب الله ﷻ حق المراقبة لانضبط سلوكه وتصرفه، وقد قال أحد المفكرين الحكماء: من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نجعل لكل إنسان جنديًّا أو شرطيًّا أو حارسًا يحرسه، وحتى لو جعلنا لكل شخص حارسًا أو جنديًّا أو شرطيًّا يحرسه فإن الحارس أيضًا قد يحتاج إلى من يحرسه، والمُراقب قد يحتاج إلى من يُراقبه، ولكن من السهل أن نُربي في كل إنسان ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ويدفع إليه، راقبناه أم لم نراقبه؛ لأنه يُراقَب ممن لا تأخذه سِنة ولا نوم، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿ٱللَّهُ

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٥٥]، وحيث يقول ﷻ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[سورة الأنعام، الآية ٥٩]، ويقول ﷻ على لسان لقمان عليه السلام في وصيته لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة لقمان، الآية ١٦]، ويقول ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة المجادلة، الآية ٧]، ويقول نبينا ﷺ: "ثَلاثٌ كَفَّارَاتٌ، وَثَلاثٌ دَرَجَاتٌ، وَثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ، وَثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ، فَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ: فَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ

بَعْدَ الصَّلاةِ، وَنَقْلُ الأَقْدَام إِلَى الْجُمُعَاتِ، وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطَّعَام، وَإِفْشَاءُ السَّلام، وَالصَّلاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَخَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ، وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ" (مسند البزار).

ومن أهم السلوكيات التي ينبغي أن نُركز عليها هو التمييز بين السلوك الإيجابي والسلوك السلبي تجاه الحق العام، والشأن العام، والمال العام، ففي جانب السلوك الإيجابي الذي يؤكده الإسلام ويُرشدنا ويحثنا عليه خير الأنام سيدنا محمد ﷺ إماطة الأذى عن الطريق، يقول نبينا ﷺ: "الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ" (صحيح مسلم)، ويقول ﷺ: "إماطة الأذى عن الطريق صدقة" (المعجم الكبير للطبراني)، وعندما سأل رجل النبي ﷺ عن عمل يُدخله الجنة قائلًا يَا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ؟ قَالَ ﷺ: "أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ" (مسند أحمد)،

على أن إماطة الأذى عن الطريق لا تتوقف عند مجرد رفع حجر هنا أو هناك عنه، وإن كان ذلك أمرًا مشروعًا ومطلوبًا وجيدًا، ولا يُستهان أو يُستخف به، إنما حق الطريق أبعد من ذلك، وأول حقوقه عدم الاعتداء عليه، أو الإجحاف به، أو عدم الوفاء بحقه، فقد قال نبينا ﷺ لأصحابه يومًا: "إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ" (رواه البخاري)، على عكس السلوك السلبي الذي قد يتمثل في الاعتداء على المساحة المخصصة للطريق سواء بالبناء أم بالإشغال أم بالإزعاج أم بالخروج على الآداب العامة، ويلحق بالطريق في ضرورة إعطائه حقه، والمحافظة عليه كل ما في حكمه من مسارات السكة الحديد، ومترو الأنفاق، وخطوط المياه، والغاز، والكهرباء، وسائر المرافق العامة.

وكذلك السلوك تجاه المال العام الذي هو مال الله، ومال الأمة، ومال الوطن، ومال المواطنين، حيث يقول

الحق ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [سورة النساء، الآيتان ٢٩، ٣٠)، ويقول نبينا ﷺ: "إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (صحيح البخاري)، ويقول ﷺ: "كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ" (شعب الإيمان).

على أن حُرمة المال العام أشد من المال الخاص، فإذا كان للمال الخاص صاحب يدافع عنه ويطالب به في الدنيا والآخرة، فإن المال العام الذي هو حق للمجتمع كله قد يترتب على ضياعه جوع يتيم، أو وفاة مريض، أو فوت مصلحة عامة للوطن، يؤثر ضياعها على أفراد المجتمع كله، مما يجعلهم جميعًا خصومًا لمن اعتدى عليه سواء في الدنيا أم ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [سورة الشعراء، الآيتان ٨٨، ٨٩].

* * *

الرجولة في الفيس بوك

الرجولة هي الرجولة في أي مكان، وأنها لتعني أن يكون الإنسان رجُلًا بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ، وهو ما لا يتفق مع معاني الغدر، أو الجبن، أو الخسة، أو التشهير، أو النفاق الاجتماعي، أو البذاءة، أو التدني الأخلاقي.

الرجولة تعني المروءة، والشهامة، والأصالة، والنجدة، والإغاثة، والأدب، واللياقة، والقدرة على المواجهة وسائر الأخلاق النبيلة لا عكس ذلك.

أما هؤلاء الجبناء الذين يعمدون إلى استخدام أسماء أو حسابات مستعارة أو مضللة على الفيس بوك وغيره من مواقع التواصل، مع تعمد إلى تغيير الاسم، أو النوع، أو الصورة، أو الأيديولوجية، أو الصفة الوظيفية، أو محل الإقامة، أو كل ذلك، أو بعضه كوسيلة للإيهام والتضليل والهروب عن أعين الرقيب أو الرقباء، فإن كل ذلك ليس

من الرجولة في شيء، ولا سيما تلك الجماعات الجبانة التي تعمل وعن عمد على توظيف ذلك لإفشال الدول أو إسقاطها من خلال تشويه منجزاتها ورموزها الوطنية، بالكذب، والتدليس، وقلب الحقائق.

وإذا كان بعض الناس يظن نفسه قادرًا على الإفلات من الرقابة أو المحاسبة أو منهما معًا فعليه أن يدرك أنه إن استطاع الإفلات من حساب الخلق فأين هو من محاسبة الخالق ﷻ له، حيث يقول الحق ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنعام، الآية ٥٩]، ويقول ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة المجادلة، الآية ٧]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ

مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [سورة ق، الآيات ١٦- ١٨]، ويقول ﷻ على لسان لقمان عليه السلام في وصيته لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة لقمان، الآية ١٦]، ويقول ﷻ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [سورة الإسراء، الآيتان ١٣،١٤].

الرجولة تعني الحفاظ على الأعراض، ذلك أن الإنسان الأصيل لا يمكن أن يتدنى فكريًّا ولا أخلاقيًّا، وأن يكون هو هو ظاهره كباطنه، سره كعلنه، حيث يقول نبينا ﷺ: "ثَلاَثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللهِّ ﷻ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ" (شعب الإيمان)، فخشية الله ﷻ في السر والعلن تعصم الفرد والمجتمع من الزلل، وقد سئل بعضهم: "بِمَ ينال العبد الجنة؟"، فقال: "بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة لله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب".

فعلى كل إنسان أن يدرك أنه كما يدين يدان، وكما يفعل يفعل بأهل بيته، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة عندما جاءه شاب فَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللهَّ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قَالَ: لاَ. وَاللهَّ جَعَلَنِي اللهُّ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ قَالَ: لاَ. وَاللهَّ يَا رَسُولَ اللهَّ جَعَلَنِي اللهُّ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ قَالَ: لاَ. وَاللهَّ جَعَلَنِي اللهُّ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لاَ. وَاللهَّ جَعَلَنِي اللهُّ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لاَ. وَاللهَّ جَعَلَنِي اللهُّ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاَتِهِمْ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ" (مسند أحمد).

فمن تتبع عورات الناس تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه ولو على رءوس الأشهاد، والرجولة تقتضي استغلال مواقع التواصل في الإصلاح والنصح والإرشاد والقول الحسن والكلمة الطيبة، ونشر الفضيلة لا الرذيلة.

الوفـــاء من شيم الكرام

خلق الوفاء أحد أهم الأخلاق الإنسانية الراقية المرتبطة بمجموعة قيمية تدور حول الرقي والمروءة والنبل، ويكفي للإنسان فخرًا وصفه بأنه وفيّ، ويكفيه ذمًّا وسوءًا وصفه ووصمه بالخيانة أو الغدر أو الجحود ونكران الجميل، ففي الحديث الشريف يقول نبينا ﷺ: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" (سُنن أبي داود)، وفي الحديث أيضًا: "مَنِ استعاذَ بالله فأعيذُوه، ومَنْ سألَ بالله فأعطُوه، ومَن دعاكم فأجيبُوه، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ" (سُنن أبي داود).

وقـد امـتدح رب العـزة ﷻ نبيه إبراهيم عليه السلام بالـوفاء فقال ﷻ: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [سورة النجم، الآية ٣٧]، ويقـول ﷻ: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [سورة

الإسراء، الآية ٣٤]، ويقول ﷻ: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية ١٥٢]، ويقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [سورة الرعد، الآية ٢٠].

وخُلْفُ العهد والوعد وعدم الوفاء من علامات المنافقين، وفي الحديث الشريف: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ" (متفق عليه)، ويقول ﷺ: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ" (متفق عليه)، ويقول الحق ﷻ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة النحل ٩١،٩٢]، وقالوا: ثلاثة تعجل لها العقوبة في الدنيا: "الغدر واليمين

الكاذبة، ورد المعتذر خائبًا"، وفي الحديث يقول نبينا ﷺ: "إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ فَقِيلَ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ" (متفق عليه)، وفي الحديث القدسي: "ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ، وَلَمْ يُوفِهِ أَجْرَهُ" (أخرجه ابن ماجه).

وقد كان نبينا ﷺ أوفى الناس لأهله ولأصحابه وللناس أجمعين، فقد كانت امرأة عجوز تزوره ﷺ وهو في بيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فكان ﷺ يقوم لها ويهش لها ويكرم وفادتها، فسألته السيدة عائشة رضي الله عنها عن ذلك، فقال ﷺ: "إن هذه كانت تأتينا على أيام خديجة" (المعجم الكبير للطبراني)، وكان ﷺ يقول عن السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها: "آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلادَ النِّسَاءِ" (مسند أحمد)، وكان نبينا ﷺ يقول عن أبي بكر رضي الله عنه: "إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ

خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ " (صحيح مسلم).

فما أحوجنا اليوم إلى وفاء حقيقي لا جحود ولا نكران للجميل فيه، وفاء التلميذ لأستاذه، والولد لأبيه، والصانع لمن علمه، والإنسان لمن أحسن إليه، وأن لا نقابل الحسنة بالسيئة، وإذا كان الحق ﷻ يرشدنا ويوجهنا أن نقابل السيئة بالحسنة فيقول ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [سورة فصلت، الآيتان ٣٤،٣٥]، فكيف بمن أحسن إلينا، ومد وقت الشدة يد العون لنا ؟! إنه الأولى بالوفاء والإكرام، فالوفاء من شيم الكرام.

❊ ❊ ❊

ابتلاءات الأنبياء والصالحين

إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، ويبتلى الناس على قدر دينهم، فأشدهم إيمانًا أشدهم وأكثرهم ابتلاء، يقول نبينا ﷺ: "أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً، الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ" (مسند أحمد).

ومن نماذج ابتلاءات الأنبياء ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام الذي مسه الضر، فصبر ورضي، ولم يسخط أو يجزع، حيث يذكر أهل العلم أن الضر كان قد أصابه سنوات فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَسَدِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَأَوْلادٌ كَثِيرَةٌ، وَمَنَازِلُ مَرْضِيَّةٌ. فَابْتُلِيَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَذَهَبَ عَنِ آخِرِهِ، ثُمَّ ابْتُلِيَ فِي جَسَدِهِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ يَحْنُو عَلَيْهِ سِوَى زَوْجَتُه، كَانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ حتى مَنَّ الله عز وجل عليه بالشفاء، وردَّ إليه عافيته، على نحو

ما يصور القرآن الكريم: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء ، الآيتان٨٣، ٨٤].

ويقول بعض أهل العلم: كيف يغفل من ابتلي في جسده عن قوله تعالى على لسان أيوب عليه السلام حين نادى ربه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وهذا إبراهيم عليه السلام يُبتلى بكيد قومه له وتربصهم به إلى درجة إيقاد النار والعمل على إلقائه فيها حيًّا لإحراقه بها؛ لكن الرحمة الإلهية كانت حاضرة، حيث أمر الحق سبحانه وتعالى النار أن تكون بردًا وسلامًا فكانت، حيث يقول سبحانه وتعالى على لسان قومه: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآيات ٦٨- ٧٠].

ثم يُبتلى عليه السلام ويُختبر في ذبح ولده إسماعيل عليه السلام فما كان منهما عليهما السلام إلا الرضا والاستسلام لأمر الله عز وجل والاستجابة له، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا

بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة الصافات ١٠١، ١٠٢].

وهذا نبي الله يونس عليه السلام يُبتلى بالتقام الحوت له فلم يغفل وهو في بطن الحوت عن المناجاة بالاستغفار ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء، الآية ٨٧]، حتى كانت النجاة، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [سورة الصافات، الآيات ١٣٩ – ١٤٨]، ولهذا قال بعض أهل العلم أيضًا: وعجبت لمن ابتلي بالضيق كيف يغفل عن قوله تعالى على لسان يونس عليه السلام: ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وهذا نبينا محمد ﷺ وقد أصابه من الامتحان والابتلاء ما أصابه، حيث آذاه قومه وأخرجوه، وحاولوا قتله، وكسروا ثنيته يوم أحد، وسلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم يوم الطائف يرمونه ﷺ بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الشريفتين، وهو ينادي ويقول: "اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي، وَقِلّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ، أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ أَنْتَ أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ، إلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلَى عدو يَتَجَهّمُنِي؟ أَمْ إلَى قريب مَلّكْتَهُ أَمْرِي؟ إنْ لَمْ تكُنْ غضبانًا علي فَلاَ أُبَالِي، إن عَافِيَتَك أَوْسَعُ لِي" (المعجم الكبير للطبراني).

وهكذا أيضًا شأن المؤمنين الصادقين، حيث يقول ﷻ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت، الآيتان ٢، ٣].

على أن عاقبة الصبر على الابتلاء عافية في الدنيا ورحمة ورضا من الله ﷻ في الآخرة، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [سورة الزمر، الآية١٠]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ

صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [سورة البقرة، الآيات ١٥٥ – ١٥٧]، ويقول نبينا ﷺ: "مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ" (صحيح البخاري)، ومع ذلك سلوا الله العافية، ومن ابتلي فليحمد الله ويصبر.

❊ ❊ ❊

نحو توظيف أمثل لأموال الزكاة

لا شك أن الزكاة إذا وُظِّفت توظيفًا صحيحًا في مصارفها الشرعية تسد ثغرة كبيرة في احتياجات الفقراء والكادحين والمصالح العامة للوطن، وإذا سَخَت نفس الأغنياء والقادرين بالصدقات والقيام بواجبهم في باب فروض الكفايات من إطعام الجائع، وكساء العاري، ومداواة المريض، وإعانة المحتاج، والإسهام الجاد فيما يحتاج إليه الوطن من إصلاح وسلاح وعتاد فإن وجه الحياة لأي وطن سيتغير، ولن يكون بين أبنائه محتاج ولا متسول، يقول الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه: "إن الله عز وجل قسم أقوات الفقراء في أموال الأغنياء، فما جاع فقير إلا بشح غني" ، فإن وجدت فقيرًا جائعًا فاعلم أن هناك غنيًا ظالمًا لم يُخرج حق الله في ماله، ولم يف بواجبه تجاه مجتمعه.

وإذا استثمر الوقف استثمارًا صحيحًا إلى جانب ذلك كله لصالح الوطن أدى ذلك مجتمِعًا إلى الإسهام في نهضة حقيقية لوطننا الغالي، بل ربما فاض الخير إلى دول أكثر فقرًا نحن في حاجة أن نمد لها يد العون كبعض دول حوض النيل التي نحتاج إلى التواصل والتعاون العلمي والثقافي والخيري والإنساني معها على المستويين الحكومي والشعبي بمؤسساته المدنية القوية، التي يمكن أن تنفذ مشروعات كبيرة أو عملاقة في تلك الدول وغيرها من الدول الإفريقية الفقيرة كبُعد إستراتيجي وجـزء من أمننـا القومي، وهناك نمـاذج كثيـرة مشكـورة في هذا المجال لبعض مؤسسات المجتمع المدني.

الزكاة حق أصيل في المال:

وأؤكد على حقـائق: أولها: أن الـزكاة حـق أصيل في المـال، وركـن رئيس من أركان الإسلام كالصلاة والصيام سواء بسواء، وقد قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "ثلاث في القرآن الكريم نزلت مقرونة بثلاث، لا تقبل واحدة منها دون الأخرى، وهى قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ

ٱلرَّسُولَ ﴾ [سورة المائدة، الآية ٩٢] إذ لا تقبل طاعة الله مع معصية رسوله ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[سورة البقرة، الآية ٤٣] فمن ضيّع الزكاة مع وجوبها عليه لم تغن عنه صلاته من الله شيئًا، وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة لقمان، الآية ١٤] فمن لم يشكر لوالديه جميلهما وصنيعهما لم يشكر الله ﷻ، ويقول ﷻ في شأن كانزي المال ومانعي الزكاة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [سورة التوبة، الآيتان ٣٤، ٣٥].

الأمر الثاني: أن الإسلام قد دعا إلى الصدقة والإكثار منها يقول ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٦١]، ويقول ﷺ: "ما نقص مال عبد من صدقة" (سُنن الترمذي)، ويقول ﷺ: "خير الصدقة أن تصدق وأنت

صحيح شحيح ترجو الغنى وتخشى الفقر، ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان وقد كان لفلان" (متفق عليه)، ويقول ﷺ: "ما من يوم إلا وينادي ملكان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا" (متفق عليه)، ويقول الحق ﷻ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [سورة محمد، الآية ٣٨].

مكمن الخلل وإصلاحه:

لاشك أن الخلل لا يخرج عن أن يكون من جهة الدافع أو جهة متلقي الزكاة أو من الجهة الوسيطة سواء أكانت شخصًا أم جمعيةً أم مؤسسةً.

فالخلل الذي يأتي من جهة الدافع إما أن يكون بعدم الدفع أصلًا، وإما بالتحايل عليه، وإما بدفعه دون تمحيص أو تدقيق في أمر الجهة التي يدفع لها.

وهنا ينبغي أن يركز الخطاب الديني على وجوب الزكاة وأهمية إخراجها والإثم الشديد المترتب على منع حق الله ﷻ في المال مع التأكيد على أن الغني لا تبرأ ذمته بمجرد إلقاء المال أي إلقاء وكيف تأتى له، فبعض الفقهاء على أن الغني إذا دفع المال إلى من ظنه فقيرًا فبان خلافه لم تسقط عنه الزكاة، فعليه أن يتحرى في المصارف الشرعية وفى أمانة ودقة وشرعية الجهة التي يدفع إليها زكاته حتى تبرأ ذمته أمام الله ﷻ، وتسهم زكاته في الثمرة المرجوة التي شرعت من أجلها الزكاة.

والخلل الذي يأتي من جهة الآخذ إنما يأتي من ضعف الوازع الديني لدى بعض من تسول لهم أنفسهم الحصول على المال من أي طريق حتى لو كان فيه إراقة ماء وجوههم، وهؤلاء علينا أن نذكرهم بمنهج الإسلام وبالحس الإنساني السليم الذي ينأى بالقادر عن العمل على التسول أو دناءة النفس، يقول نبينا ﷺ: "إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَحِلُّ إِلا لِثَلاثَةٍ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِي دم موجع" (سُنن أبي داود)، ويقول ﷺ: "المسائِلُ كُدُوحٌ يمدَحُ بها الرَّجُلَ وَجْهَهُ،

فمـن شـاء أبقـى على وجهـه، ومن شَـاءَ تَـرَكَ" (سُـنن أبي داود)، ويقـول الإمـام عـلي رضي الله عنه:

لحمل الصخر من قمم الجبال أحب إلـيَّ من منـن الرجـال
يقول الناس لي في الكسب عيب قلـت العيـب في ذل السـؤال

ويقـول نبينـا ﷺ: "إِنَّ مِمَّـا أَدْرَكَ النَّـاسُ مِـنْ كَلامِ النُّبُـوَّةِ الأُولى: إِذا لَمْ تَسْـتَحِي فاصْنَعْ ما شِـئْتَ" (رواه البخاري).

فينبغـي التأكيـد عـلى نهي الإسـلام عـن المسـألة بدون حاجـة حقيقيـة، وعـن ذل السـؤال، وأن الأبي الكريـم لا يمكـن أن يعـرض نفسـه لمـا لا يليـق بالعفيـف الكريـم، وأن اليـد العليـا المتصدقـة خـير وأكـرم مـن اليـد السـفلى الآخـذة، مـع التأكيـد عـلى أهميـة العمـل وقيمتـه وحـث الإسـلام عليـه، وبيان أن السـاعي على الأرملة والمسـكين كالمجاهـد في سـبيل الله، وأن خـير النـاس مـن يـأكل مـن عمـل يـده، ولا يكـون عالـة عـلى الآخريـن، وقـد قـال الشـاعر الجاهـلي الشـنفري الأزدي:

وأستف ترب الأرض كي لا يرى له عليَّ من الطول امرؤ متطـول

ويقول البارودي:

خلقت عيوفًا لا أرى لابن حرة علـيَّ يدًا أغي لها حين يغضب

أما جهة الخلل الثالثة: فهي آلية الجمع والتوزيع فمع إيماننا بدور بعض مؤسسات المجتمع المدني في التخفيف من معاناة الفقراء والكادحين سواء من خلال نفقات أم من خلال مشروعات خدمية، وبخاصة الطبية منها، فإنني أرى أن هذه الجهات تحتاج إلى الآتي:

أ- أن تكون تحت مراقبة دقيقة لأجهزة الدولة وأن تقوم هذه الأجهزة بالمتابعة والمراقبة على الوجه الأكمل، وأن تكون هناك شفافية واضحة في إعلان الميزانيات، والنفقات والمكافآت مع ترشيد الإنفاق الإداري إلى أقصى درجة ممكنة.

ب- أن تكون هناك خارطة واضحة لوجود هذه الجمعيات، ونطاقها الجغرافي، وأنشطتها، بحيث لا تصب كلها في مجال واحد أو مجالات محدودة، مع إهمال مجالات ربما تكون أكثر أهمية وحيوية للمجتمع.

ج- أن تتولى جهة ما، ولتكن وزارة التضامن الاجتماعي شبكة ربط وتنسيق إلكترونية تربط من خلالها المستفيدين

بالمنفقين، وبمؤسسات المجتمع المدني في نطاقها الجغرافي أو الخدمي، بحيث تنتفي ظاهرة المقيدين أو المستفيدين بحرفية تسوليّة من جهات أو جمعيات متعددة في حين لا تصل الزكاة والصدقات إلى مستحقيها الحقيقيين.

د. أن تحدد أهدافًا وأغراضًا واضحةً قد يتضافر فيها الجميع، أو تخصص كل جهة أو جمعية لغرض منها، كإطعام الجائعين وعلاج المرضى، وسداد ديون الغارمين، وهى مناط الحملة التي بدأت بها وتبنتها وزارة الأوقاف المصرية.

❊ ❊ ❊

نساء مصريات

المرأة قسيم الرجل ونصيفه وزوجه وشريكه، وقد عبر القرآن الكريم في جميع آياته عن المرأة بالزوج، ولم يذكرها بلفظ الزوجة مرة واحدة، للتكافؤ حتى في اللفظ، حيث يقول الحق ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الروم، الآية ٢١] ، ويقول ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [سورة النحل، الآية ٧٢]، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء، الآية ١]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَكُمْ

نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞ﴾ [سورة النساء، الآية١٢)، ويقول ﷻ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ [سورة الزخرف، الآية٧٠]، حيث يعبر بالزوج هنا عن النظير والضريب والشبيه في السيرة والمسلك.

وقد عرف التاريخ نساء فضليات كثيرات، ذكر القرآن الكريم عددًا منهن صراحة وآخريات إشارة، وممن ذكرهن القرآن الكريم صراحة أو إشارة من النساء المصريات اللاتي وُلدن أو نشأن أو عِشن وحَيِيْنَ على أرض مصر أو قدمن إليها أو مررن بها نذكر هاجر أم إسماعيل، وأم موسى وأخته، وامرأة فرعون، وامرأة العزيز، وأم يوسف زوج سيدنا يعقوب، على الجميع السلام.

فأما هاجر أم إسماعيل عليهما السلام، فقد أَمر الله ﷻ سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يأخذها وولدها إسماعيل إلى حيث أراد الله إلى مكة المكرمة إلى وادٍ غير ذي زرع عند بيته المحرم، حيث يقول الحق ﷻ على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ

رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [سورة إبراهيم، الآية ٣٧]، وهنا يخاطب إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل ويدعوه قائلًا ﴿ رَّبَّنَآ ﴾ للتأكيد على أن هذه الربوبية تشمل الجميع إبراهيم وهاجر وإسماعيل ومن تركه من ذريته ببلاد الشام والكون كله فهو سبحانه وتعالى رب الجميع وكافلهم، ويذكر بعض الرواة وكتاب التاريخ أن سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أراد الانصراف التفت إلى زوجه هاجر وولده إسماعيل، فقالت هاجر لنبي الله إبراهيم عليه السلام، يا إبراهيم: آلله أمرك بهذا؟ فقال عليه السلام: نعم، فقالت عليها وعلى ولدها السلام: إذن لا يضيعنا.

ثم يأتي سعي هاجر عليها السلام بين الصفا والمروة، طلبًا للماء لها ولولدها، حتى يأتيها الفضل العظيم من رب كريم بفيض زمزم؛ لتكون بركة لها، ولولدها، ولأهل حرم الله الآمن، وللعالمين، وليصبح السعي بين الصفا والمروة ركنًا من أركان حج بيت الله عز وجل ورمزًا للسعي الجاد والأخذ بالأسباب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومـن يتأمل رحلة السـعي هذه بين الصفا والمروة سـبع مـرات في هـذه المنطقـة بما كانـت عليهـا من طبيعة قاسـية آنـذاك يدرك مـدى عزيمة هـذه المرأة المصريـة المؤمنة التي انقطعـت في هـذه المنطقـة لولدهـا تقـوم عـلى رعايته خير قيـام راضية بقـدر الله لها، لا تخشـى هذه الطبيعـة الصعبة التـي كانـت في ذلـك الوقـت جدبـاء قاحلـة موحشـة، إذ كانـت عليها السلام مؤمنـة بأن ربهـا الذي اختـار لهـا ولولدها هذا المـكان كفيـل بهـما، أمـا كيـف ومتى فـلا علم لهـا، غير أن ثقتهـا في الله لم تقـف عنـد حد، وعـلى أنها لم تقـف متواكلة منتظـرة أن تمطـر السـماء لهـا ذهبًا أو فضـةً، لكنها سـعت وسـعت وجـدت واجتهدت وأخـذت بالأسـباب، إلى أن عمها خالق الأسـباب والمسـببات بفضلـه وغمرها بكرمه ورزقه الواسـع، وجعل أفئـدة من الناس تهـوي إليها وإلى ولدهـا وإلى هـذا المـكان المبـارك، وخلـد سـعيها الميمـون في كتابـه الكريـم، وجعلـه أنموذجًـا يحتـذى ومَعْلـما مـن أهـم معـالم الحـج الجامعـة للبـشر عـلى اختلاف ألسـنتهم وألوانهـم لتكتمـل العبادة.

وهـذا طـرف آخـر مـن حديـث القـرآن الكريـم عـن بعـض النسـاء الـلاتي وُلـدن أو نشـأن أو حيـين عـلى أرض

مـصر أو جئـن إليهـا أو زرنها أو مـررن بها، ومنهـن امرأة فرعـون التـي امتدحها القـرآن الكريم في سـورة التحريم، فقـال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سـورة التحريـم، الآية ١١)، فاسـتجاب الله دعاءهـا، ولم يأخذها بجريـرة فرعـون أو جرائمـه، ذلـك أن العـدل الإلهـي اقتـضى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [سـورة النجـم، الآيتـان ٣٨ ، ٣٩]، وأن لـكل نفـس ما كسـبت وعليها ما اكتسـبت، وأن الإنسـان إذا ما صلـح مـا بينـه وبـين ربـه لا يضره ضـلال من ضـل حتى لـو كان أقـرب النـاس إليه أبًـا أو أخًـا أو ابنًـا، أو زوجًا كما كان هنـا في شـأن امـرأة فرعـون، وهي التـي جندها الله ﷻ لتحـول بـين زوجها وحاشـيته وبـين قتل موسـى عليه السلام حين ألقـى اليـم الصندوق الـذي وضع فيه موسـى عليه السلام إلى قصر فرعـون، فـأرادوا أن يقتلـوه، فقالـت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [سـورة القصـص، الآية ٩].

وارتباطًا بهذا الحديث نقف على ما كان من امرأتين كريمتين عاشتا على أرض مصر هما أم موسى عليه السلام وأخته، فعندما أخبر أحد الكهنة فرعون أن طفلًا يولد من بني إسرائيل تكون نهاية ملكه على يديه شرع فرعون يقتل أبناءهم الذكور، وفي هذه الفترة العصيبة وضعت أم موسى عليه السلام وليدها، وخشيت أن يأتي زبانية فرعون لقتله، وهنا جاءها الأمر الإلهي ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة القصص، الآية ٧].

ولنا مع هذه الآية وقفات:

١ - أن الأصمعي سمع امرأة فصيحة بليغة، فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: وأي فصاحة وأي بلاغة إلى جانب فصاحة وبلاغة كتاب الله عز وجل، وقد جمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، أما الأمران فهما: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾، و﴿أَلْقِيهِ﴾، وأما النهيان فهما: ﴿وَلَا تَخَافِى﴾، ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾، وأما الخبران والبشارتان معًا فهما ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

٢ - أن الإنسان إذا خاف على ولده وخاصة إذا كان الولد لا يزال طفلًا لا يكاد يعقل ولا يعي اجتهد كل الاجتهاد في إبعاده من اليم، لكن الحق ﷻ يوجه أم موسى إذا خافت على ولدها بأن تلقيه في اليم، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة يس، الآية ٨٢].

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

٣ - أن البشرى لم تكن بمجرد رده إليها فحسب، إنما تجاوزت ذلك إلى بشرى أخرى وهي جعله من المرسلين، فصنعت أم موسى الصندوق الخشبي، واستجابت في إيمان كبير لأمر ربها، ووضعت في الصندوق وليدها، وألقته في اليم، وقلبها البشري يكاد ينفطر، وهنا يأتي دور الأخت، ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ أي تتبعي مسيره في الماء،﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة القصص، الآية ١١]، فصارت ترقبه على الشاطئ، ولا يغني حذر من قدر، فقد ألقاه اليم إلى حيث كانت أمه تحذر وتخاف، ألقاه إلى قصر فرعون، وتذكر بعض الروايات أن أخته هذه كانت تعمل بقصر فرعون أو لها به صلة ما، وقد

أبى الطفل أن يرضع من أي امرأة في القصر، فوقعوا في حيرة العناية به، فقالت أخته: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [سورة القصص، الآية ١٢]، وطمس الله على أفئدة فرعون وحاشيته، فلم يسألوا أخت موسى عن سر ثقتها في أهل هذا البيت، وجاءت البشرى الأولى سريعة غير متوقعة لأم موسى ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾ [سورة القصص، الآية ١٣] ، ثم تحققت بعد ذلك البشرى الثانية بجعله من المرسلين.

ونستطيع أن نؤكد أن دور المرأة تاريخيًّا وفي مسيرة الإنسانية لم يكن أبدًا هامشيًّا، إنما كان دورًا مهمًّا وفاعلًا، وفي قصة أم موسى وأخته بدا دورهما في الحفاظ على الأسرة وحمايتها مما يتهددها من تحديات واضحًا بارزًا، مما يؤكد قدرة المرأة على الإسهام في مواجهة المخاطر والتحديات، والحفاظ على بيتها وأسرتها وعرضها وأبنائها، وكذلك الإسهام في نهضة وطنها ورقيه وتقدمه.

* * *

مـــال الوقف ومال اليتيم

مـال الوقـف هـو مـال الله، وهـو لمـا أُوقِـفَ لـه، فشرط الواقـف كنـص الشـارع، فهـو واجـب النفـاذ، مـا لم يُحِـل حرامًـا أو يُحَـرّم حـلالًا، ولا أعلـم وقفًـا واحـدًا أو واقفًـا واحـدًا أوقـف وهـو يبتغـي وجـه الله ﷻ، أحـل حرامًـا أو حـرم حـلالًا، إنـما هـو بغيـة الفضـل والرضـا والقبـول والمثوبـة.

ومـال الوقـف مـال خـاص بـما أوقف لـه أو عليـه، غير أن نفعـه قـد يتعـدى الخـاص إلى العـام، عندما يكـون وقفًا عـلى عمـوم الفقـراء، أو عمـوم المسـاجد، أو عـلى التعليم، أو عـلاج المـرضى، أو عـلى عموم الخـيرات باتسـاع أبوابها.

ومـن ثمـة فإن حـق هـذا المـال لا يسـقط بالتقـادم أبدًا، والاعتـداء عليـه أو تسـهيل الاسـتيلاء عليـه أو الإهمـال في حقـه وعـدم المحافظـة عليـه إثـم كبـير وجـرم مقيـم، فهـو

بمثابة مال اليتيم وأشد، فكلاهما نار تحرق جسد من يقترب منهما بغير حق في الدنيا والآخرة، حيث يحول هذا المال الحرام حياة آكله إلى جحيم في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية ٢٦]؛ حيث يقول الحق ﷻ في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية ١٠]، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [سورة النساء، الآيتان ٢٩، ٣٠].

والقائمون على شئون الوقف كالقائم على مال اليتيم، وقد نظم لهم القانون حقوقهم وواجباتهم، غير أن هناك قانونًا أعظم، لا يفلت منه أحد، هو قانون السماء وعدالة السماء، حيث يقول الحق ﷻ في شأن القائم على مال اليتيم: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء، الآية ٦]، فعلينا جميعًا أن

نستحضر نية مرضاة الله، وأن نبتغي - إلى جانب القيام بمهمتنا الوظيفية - وجه الله في الحفاظ على هذا المال، وأن نحرص على استرداد ما اعتدي عليه منه، وأن نعمل على تنميته وتعظيم استثماراته وعائداته، مدركين أن ما نقوم به إنما هو عمل جليل في خدمة الدين والوطن، وأن نُقْصِيَ عنه أي فاسد أو مُعَوّق؛ لأن الأمانة ثقيلة لمن أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها، مع تأكيدنا أن الخير في أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة وسيظل، وأن هناك مجموعة من الرجال والشباب المؤمنين الوطنيين داخل هيئة الأوقاف وخارجها يعملون الآن بهمة وحماس للوفاء بمهمتي المحافظة على المال وتطوير وتحسين وتعظيم استثماراته، مبتغين وجه الله ﷻ، ومصلحة الوطن والوفاء بحق الأمانة التي حملوها، والخير لأنفسهم ولزملائهم، وهو ما يستحقون عليه التشجيع والتقدير، وإن كانت هذه الجهود ما تزال في بدايتها، وتحتاج إلى الرعاية والدعم، وهم ونحن معهم على أمل كبير في النهوض بمنظومة الأوقاف بإذن الله تعالى.

ويبقى هؤلاء المتربصون بالوقف، المتطلعون إليه، الذين لا يردعهم دين ولا خلق كريم عن الاعتداء عليه أو محاولات

هذا الاعتداء، أو التحايل في الاستيلاء عليه ظلمًا وعدوانًا غصبًا أو تدليسًا، أو إيهامًا للنفس بالشراء الذي تحول لدى البعض بصور غير مشروعة إلى محاولات للنهب، وإلى جانب هؤلاء كل متواطئ أو صامت على جرائمهم، أو مستغاث به غير مغيث، أو غير مكترث، أو غير مهتم أو جاعل مال الوقف في ذيل أولوياته، أو ناظر إليه على أنه مال لا صاحب له، ولهؤلاء وأولئك نقول: إن لهذا المال صاحبًا لا يغفل ولا ينام، ولن ينتفع أحد بمال الوقف بغير حق فيهنأ به أبدًا، إنما يكون عليهم حسرة في الدنيا قبل أن يقال يوم العرض على الله ﷻ: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [سورة الصافات، الآية ٢٤)، فماذا هم لربهم قائلون؟

وعلى الجانب الآخر هناك من يحمل راية الوقف ويريدها عاليةً خفاقةً، ويعمل على استرداد جميع حقوقه؛ خشية لله؛ وإحقاقًا للحق؛ وصونًا للوقف؛ وتفعيلًا لدوره في العمل الخيري والاجتماعي وصالح الفقراء والمحتاجين، وسائر أوجه البر التي أوقف لها، من نشر الفهم المستنير للدين، وإعداد الدعاة وتدريبهم، وعمارة بيوت الله، وسائر وجوه البر والخيرات، فجزى الله كل من جعل قضية الوقف

نصب عينيه، ثم يأتي شكر لجميع السادة أعضاء اللجنة المشكلة لاسترداد أملاك الأوقاف والعمل على تعظيم استثماراتها وجميع معاونيهم واحدًا واحدًا، وأقول لهم ولجميع العاملين بهيئة الأوقاف: إنكم لتؤدون عملًا لو تعلمون عظيمًا، ونحن نعد خطة شديدة الإحكام لحصر أموال الأوقاف، قائلًا: لو لم نعمل في حياتنا شيئًا آخرَ غير تحصين هذا المال من النهب للقينا الله ﷻ ونحن على أمل في ألا يردنا عنه خائبين، وإننا لندرك أن اليوم عمل وغدًا الحساب، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء ، الآيتان ٨٨ ، ٨٩].

على أننا جميعًا في حاجة ماسة إلى رحمته ﷻ وإلى عونه وتأييده وتسديده، وأن يوفقنا لخدمة دينه، وخدمة وطننا، وخدمة مال الوقف، والوفاء بحق ما كلفنا به، وأن يعيننا على ذلك، إنه وحده ولي ذلك والقادر عليه، وهو الموفق والمستعان.

* * *

الوُجُــوه المسفرة

لقـد تحدث القرآن الكريـم عن وُجُـوه المؤمنين ووُجُوه الكافرين، فقال في الأولى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [سـورة عبـس، الآيتـان ٣٨، ٣٩]، وقال ﷻ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[سـورة القيامـة، الآيتان ٢٢، ٢٣]، وقـال في الأخـرى:﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [سـورة عبـس، الآيـات ٤٠- ٤٢]، وقـال ﷻ: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [سـورة المؤمنـون، الآيـة ١٠٤]، وقـال ﷻ: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [سـورة الأنبيـاء، الآيـة ٣٩]، وقـال ﷻ: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [سـورة الزمـر، الآيـة ٢٤]، وقـال في مانعـي الـزكاة﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا

مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [سورة التوبة، الآيـة ٣٥].

والحقيقة أن ما دفعني إلى كتابة هذا المقال هو سفرة طويلة رأيت فيها وُجُوهًا مختلفةً لا علاقة للأمر فيها بالجنة أو النار، فهاتان مآلهما وعلمهما وأمرهما إلى الله وحده، إذ لا يمكن لأحد من الخلق أن يحكم على أحد بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار، فذلك شأن خطير، وفي حديث نبينا ﷺ يقول: "كَانَ رَجُلاَنِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لاَ يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ "قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ" (سُنن أبي داود).

إنـما كانـت القضيـة تتعلق بمدى انبسـاط الوجه وتبسـم المـرء في وجـه أخيـه، ومحاولة إدخال البسـمة أو السـعادة أو

السرور عليه، من باب قوله ﷺ: "لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ" (صحيح مسلم)، وقد قالوا: البر شيء حسن، وجه طلق وقول لين، هذه الوُجُوه بغض النظر عن دينها أو مدى تدينها هي دنيا الناس، وُجُوه نضرة، وُجُوه مضيئة، وُجُوه إنسانية.

غير أن على الجانب الآخر نرى الوُجُوه الكالحة العابسة الكئيبة تعلوها غبرة وترهقها قطرة، فلا هي فاقهة لأمر دينها، ولا لأمر دنياها، فهناك وُجُوه عبوسة مكفهرة لا تكاد ترى لصاحبها بسمة ولا تدخل على أحد مسرة، ومع ذلك يظن بعض أصحاب هذه الوُجُوه العابسة البائسة أن هذا العبوس وتلك الكآبة قد تعطيهم قوةً أو تضفي عليهم مهابةً مصطنعةً، على أن من يفكرون بهذه الطريقة إنما يحاولون أن يجبروا بداخلهم نقصًا وضعفًا وهزيمةً نفسيةً داخليةً، فقد كان نبينا ﷺ يمزح غير أنه ﷺ لا يقول في جده ولا مزاحه إلا حقًّا، نحو ما كان من مداعبته لتلك العجوز بقوله ﷺ: "لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ، فَبَكَتْ عَجُوزٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ يَوْمَئِذٍ عَجُوزٌ إِنَّهَا يَوْمَئِذٍ شَابَّةٌ" (البعث

والنشـور للبيهقـي) وذلـك حيـث يقـول الحـق ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾[سـورة الواقعـة، الآيـات ٣٥- ٣٧].

وقد روى في مواضع متعددة من كتب السنة والسيرة تبسمه ﷺ في وجه أصحابه، ومداعبته لهم، وملاطفته إياهم، فقد رأى ﷺ الإمام عليًّا رضي الله عنه نائمًا على الأرض فقال له مداعبًا: "قُمْ أَبا تُرَابٍ قُمْ أَبَا تُرَابٍ" (متفق عليه)، ولما رأى الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر الدوسي يحمل هرة لاطفه بقوله "يا أبا هر" وظل يلاطفه بهذا اللقب في مواقف عديدة، بل إن كتب السنة والسيرة لتؤكد أنه ﷺ ضحك في بعض المواقف حتى بدت نواجذه من شدة الضحك، الضحك الذي لا إسراف فيه ولا يخل بهيبة أو مروءة.

وخلاصة القول أن ديننا دين السماحة في القول والعمل، والطلاقة والبشاشة في الوجه، والأريحية في النفس والعطاء، وفي كرم الطباع، في الكلمة والنظرة والبسمة، فالمسلم الحق كريم معطاء سهل هين لين يألف ويؤلف، والكافر فظ غليظ لا يألف ولا يؤلف، وشر الناس من لا تؤمن غضبته ولا يرجى حلمه ولا خير فيه للناس.

مصائر الأمم

عندما نتحدث عن مصائر الأمم وما أدى إلى سقوط الـدول الـكبرى عـبر تاريخ البشرية الطويل نجد أن الظلم والطـغيان والـعتو والاستكـبار والاستعـلاء والشـذوذ عن مناط الفـطرة الإنسانية السوية كان أبرز عوامل هذا السقوط، ففي شأن قوم عاد الذين طغوا في البلاد، كان طغيانهم سبب سقوط دولتهم، يقول الحق ﷻ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [سورة فصلت، الآيتان ١٥، ١٦]، ويقول ﷻ في شأن قـارون وفرعون وهامان: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟

سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا
بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت، الآيتان ٣٩، ٤٠].

وأما قوم سيدنا لوط عليه السلام فقد انحرفوا عن جادة الطريق إلى منحنى الرذيلة والشذوذ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً
مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ
أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [سورة الأعراف، الآيات ٨٠: ٨٤].

وأما قوم سيدنا شعيب عليه السلام فكانوا يطففون الكيل والميزان ويبخسون الناس حقوقهم وأشياءهم، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا شعيب عليه السلام مخاطبًا قومه: ﴿أَوْفُواْ
ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ

﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ
﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ
أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ
لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[سورة الشعراء، الآيات ١٨١: ١٨٩].

ومن يتتبع عوامل سقوط الدول يجد أن كل من طغى وتجبر واستعلى واستكبر كانت نهايته الخراب والدمار، وأن كل من انحرف عن طريق الجادة شذوذًا عن الفطرة السوية، أو أكلًا لأموال الناس بالباطل قد لقى المصير نفسه، على شاكلة ما أصاب قوم عاد أو قوم نوح أو قوم هود أو قوم لوط أو قوم صالح أو قوم شعيب.

ونستطيع أن نؤكد أن كل الحضارات التي لم تقم ولم تبن على القيم والأخلاق حضارات كان مآلها الزوال والسقوط، وحملت عوامل هدمها وسقوطها في أساس بنائها وأصل وقيامها.

فشتان ما بين السياسة النظيفة التي تبنى على الحكمة والعقل والعدل وعدم الجور وعدم الاعتداء وعدم

الاستخفاف بالآخر أو الاستقواء عليه، وبين السياسات التي تقوم على الانتهازية والمكر والخداع والكيد للآخرين والتدبير لهم، والعمل على تحطيمهم وتدميرهم وإسقاط دولهم أو إنهاكها أو تفتيتها وتمزيقها.

فقد يكسب أصحاب المكر والخداع جولة لكنهم لا يبنون دولة، بل إنهم حتمًا سيسقطون دولهم آجلًا أو عاجلًا؛ لأن الإنسان على مستوى الأفراد والدول يمكن أن يخدع بعض الناس لبعض الوقت لكنه لا يمكن أن يخدع كل الناس كل الوقت.

إن الدول العريقة في الحضارة هي تلك الدول التي تحترم نفسها وبنفس القدر تحترم الآخر، تحترم كل تعهداتها وكل التزاماتها، لا تعتدي على الآخرين ولا تتآمر عليهم ولا تكيد لهم، بل يكون لديها القدرة على التحمل والامتصاص وبما لا يأخذ من كرامتها أو استقلال قرارها الوطني.

ولا شك أن التقاليد السياسية شأن المعطيات الحضارية أمور تراكمية تبنى عبر الأزمان وتتوارثها أجيال خلف أجيال، شأن حضارتنا الراسخة الضاربة في أعماق التاريخ لأكثر من سبعة آلاف عام.

مرضاة الله ورضا الخلق

مرضاة الله غاية كل مؤمن، والسعي لها مقصد كل مخلص، وهي سبيل المتقين، ومنهج السالكين، من سعى إليها رزق، ومن عمل لها أجر وجبر، ذلك أن ربّ العزة ﷻ قد قال في حديثه القدسي: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاَةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ" (رواه مسلم).

أما رضا الخلق كلِّ الخلق فغاية لا تدرك، ومرام لا ينال، ذلك أن أي إنسان لا يمكن أن يسع الناس كل الناس بماله، ولا بجاهه، ولا بسلطانه، حيث إن مطالب الناس منها ما هو منطقي ومشروع، ومنها ما ليس منطقيًّا ولا مشروعًا، ومنها ما هو في الطاقة والإمكانية وقابل للاستجابة والتحقيق،

ومنها ما هو فوق الطاقة والإمكانية بالنسبة للأفراد، وما يحتاج إلى وقت لتنفيذه وفق إمكانيات المؤسسات والدول، غير أن المسئولية الفردية والتضامنية والتكافلية تقتضي أن نعمل معًا على كل المستويات لقضاء حوائج الناس، وبما يحقق لهم مقومات الحياة الإنسانية الكريمة، ويطيب لي أن أسجل الآتي:

١ - أن العمل على مرضاة الناس وتحقيق رضاهم فيما هو قانوني ومشروع طريق واسع إلى مرضاة الله ﷻ، فمن يسر على معسر يسر الله عليه، ومن فرج عن إنسان كربة فرج الله ﷻ عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر إنسانًا ستره الله في الدينا والآخرة، ومن مشى في حاجة إنسان حتى يقضيها كان الله في حاجته، فعن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ما قال: سمعت صاحب هذا القبر والعهد به قريب يقول يعني نبينا محمدًا ﷺ: "مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ وَبَلَغَ فِيهَا كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنَ اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِينَ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلاثَةَ خَنَادِقَ، أَبْعَدُ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ" (شعب الإيمان).

٢ - أن العاقل الحكيم لا يعمل على مرضاة الناس بمعصية رب العباد ومخالفة أوامره ونواهيه، كأن تكون مرضاة الخلق

على حساب الحق والعدل والقانون، وكما قالوا: أنت صديقي والحق صديقي، فإن اختلفنا فالحق أولى بالصداقة، فمن طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن طلب رضا الله بإكرام الناس وحسن معاملتهم دون شطط أو تجاوز، أو مخالفة شرعية أو قانونية ﷺ وأرضى عنه الناس، ذلك أن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يحولها ويوجهها كيف يشاء.

٣ - أننا مأمورون بالتوازن بين أمريّ الدنيا والآخرة، فيجب علينا أن نعمل على عمارة الكون، وبناء الحضارة، وأن نعمل بالتوازي لأمر آخرتنا، وهذا سيدنا سعد بن أبي وقاص يقول: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي وَأَنَا مَرِيضٌ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ: لِي مَالٌ، أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: (لاَ) قُلْتُ: فَالشَّطْرِ؟ قَالَ: (لاَ) قُلْتُ: فَالثُّلُثِ ؟ قَالَ: (الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يَرْفَعُكَ، يَنْتَفِعُ بِكَ نَاسٌ، وَيُضَرُّ بِكَ آخَرُونَ" (صحيح البخاري)، وفي الأثر: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا".

لقد آثرت التعبير في جانب رضا الله ﷻ بلفظ "مرضاة" لأن زيادة المبنى زيادة في المعنى، وعلى المؤمن الصادق أن يطلب في جانب مرضاة رب العزة أعلى درجات الرضا، ويكون ذلك بالعمل على تحقيق أعلى درجات التقوى، حيث يقول الحق ﷻ في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٠٢].

أما في جانب الخلق فقد آثرت التعبير بكلمة (رضا) وهي أن أقل الصيغ مبنى أقلها معنى، ذلك أنك لو اجتهدت في إدراك أدنى درجات رضا الخلق جميعًا فلن تدرك، ما لم يشملك رب العزة بعنايته ورعايته، فيفتح لك من قلوب العباد ما أراد، وذلك حيث يقول الحق ﷻ مخاطبًا سيد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [سورة الأنفال، الآية ٦٣]، فيجب أن نعمل على رضا الخلق بمرضاة الخالق لا بغضبه ولا بمخالفة أمره.

القيم الإنسانية

لا شك أن ديننا الحنيف مفعم بالقيم الإنسانية سواء فى أخلاقه أم في تشريعاته، فعندما كرم الإسلام الإنسان كرمه على أخلاقه الإنسانية بغض النظر عن لونه أو جنسه أو لغته أو عرقه، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [سورة الإسراء، الآية ٧٠] ولم يقل: كرمنا المسلمين وحدهم، أو المؤمنين وحدهم، أو الموحدين وحدهم، وكان نبينا ﷺ يقول: "إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود و لا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (شعب الإيمان)، وكان يقول في شأن سلمان الفارسي: "سلمان منا آل البيت" (مستدرك الحاكم)، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا"، يعنى بذلك بلالًا الحبشي، وقال رسولنا ﷺ: "ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما

هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله ﷻ من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن" (سُنن أبي داود).

وعندما حرم الإسلام قتل النفس حرم قتل النفس كل نفس وأي نفس، وعصم كل الدماء فقال الحق ﷻ في كتابه العزيز: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية ٣٢]، ويقول نبينا ﷺ، "لن يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِن دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا" (صحيح البخاري)، وعندما رأى النبي ﷺ امرأة كافرة عجوزًا مقتولة فى ساحة القتال قال ﷺ: "ما كانت هذه لتقاتل فَقَالَ لِأَحَدِهِمْ: الْحَقْ خَالِدًا فَقُلْ لَهُ: لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً، وَلَا عَسِيفًا" (مسند أحمد)، بما لا يعنى أنه لا يوجد في الإسلام قتل على المعتقد إنما يكون القتال لرد العدوان، ولما مرت عليه ﷺ جنازة يهودي وقف ﷺ حتى مرت، فقيل له: إنها جنازة يهودي يا رسول الله، فقال ﷺ: أليست نفسًا؟! (متفق عليه) وعندما تحدث القرآن الكريم عن خيرية هذه الأمة ربط هذه الخيرية بإنسانية

هذه الأمة وكونها خير الناس للناس، فقال ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [سورة آل عمران، الآية ١١٠].

وقد عني التشريع الإسلامي بشأن الأيتام والضعفاء والفقراء والمحتاجين وذوي الاحتياجات الخاصة، وجعل ﷺ الساعي على الأرملة والمسكين كالصائم القائم، وكالمجاهد في سبيل الله أجرًا وثوابًا وحسن عاقبة، وكان ﷺ يقول: "هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ" (صحيح البخاري)، وعندما وصفته ﷺ السيدة خديجة رضي الله عنها قالت: "فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" (متفق عليه).

وقد راعى الإسلام حق الضعيف والجار والمسكين والمحتاج، فقال نبينا ﷺ: "وَالله لا يُؤْمِنُ، وَاللهُ لا يُؤْمِنُ بِالله، وَالله لا يُؤْمِنُ بِالله، وَلا يُؤْمِنُ". قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَا ذَلِكَ؟ قَالَ: جَارٌ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَه" (مسند أحمد)، وقالَ ﷺ: "من

كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت" (متفق عليه)، وقال ﷺ: "مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَان وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ" (المعجم الكبير للطبراني)، ولما قيل له: إن فلانة صوامة قوامة إلا أنها تؤذى جيرانها، قال ﷺ: "هي في النار" (مسند أحمد)، وعندما تحدث ﷺ عن حقوق الجار سما بها إلى أعلى درجات الرقي الإنساني حين قال: وإذا اشتريت فاكهة فأهد له منها، وإلا لم تفعل فأدخلها سرًّا، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، ثم قال: أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله" (مكارم الأخلاق للخرائطي).

وراعى الإسلام حق وشعور الغريب والبعيد، فقال الحق سبحانه وتعالى في شأن معاملة الوالدين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [سورة الإسراء، الآية ٢٣]، وجعل الإسلام اللقمة التي تضعها في فم امرأتك، والنفقة

التي تنفقها على ولدك صدقة، ونهى حتى عن مجرد جرح المشاعر، فقال نبينا ﷺ: "من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها - يعني الذكور - أدخله الله الجنة" (سُنن أبي داود)، وقال ﷺ: إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه" (متفق عليه)، ودعا إلى كل ما يحقق الوفاق والوئام الإنساني، فنهى عن التحاسد، والتباغض، والتنابز بالألقاب، ودعا إلى التراحم، والتزاور، والتسامح، وحسن الظن، ومناداة الإنسان بأحب الأسماء إليه، والبشاشة في وجهه، فقال ﷺ: "لا يحقرن أحدكم شيئًا من المعروف وإن لم يجد فليلق أخاه بوجه طليق، وإن اشتريت لحمًا أو طبخت قدرًا فأكثر مرقته واغرف لجارك منه" (سُنن الترمذي)، فما أحوجنا إلى استعادة وترسيخ هذه القيم الإنسانية التي دعا إليها ديننا الحنيف لنحقق بصدق خيرية هذه الأمة كما أرادها الله ﷻ، ونستحق بها رحمة الله أولًا، وأن نكون شهداء على الأمم ثانيًا وأن نغير الصورة القاتمة التي رسمتها الجماعة الإرهابية المضللة لديننا الحنيف من جهة أخرى.

* * *

الزينة والجوهر

كثير من الناس ينخدعون بالزينة والطلاء عن المعدن والجوهر، وعلى الرغم من تأكيدنا أننا نحتاج إلى حسن المظهر، وإلى حلاوة اللفظ وجمال المعنى، وعظمة الشكل والمضمون معًا؛ لأنهما كالروح والجسد الذي لا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا قيام له دونه، فإن النظرة إليهما يجب أن تكون متوازنة، وأن نعطي كلًّا منهما قيمته وقدره ونسبته دون شطط أو تجاوز أو إفراط أو تفريط، فلا يأخذ الشكل أو المظهر أكثر مما يستحق ولا دون ما يستحق، وكذلك الأمر بالنسبة للمبنى والمعنى.

لكن الحذر هو أن ننخدع بالمظهر وحده، فقد يحمل الإنسان في يده سيفًا ويقلده من الذهب والفضة ونفائس العقيان ما يظن أنه رافع من قيمته وشأنه، ويحيط نفسه بهالة من السيوف والدروع، غير أنه إذا كان مع ذلك جبانًا أو خائر

القوى فلن تغني عنه دروعه ولا سيوفه يوم الروع شيئًا، ويظل البطل رابط الجأش قوي الشكيمة فوق كل جبان، مهما تحصن الجبناء بظواهر الأشياء أو مظاهرها الخادعة.

إن التوازن مطلوب في كل شيء غير أن الجوهر يظل جوهرًا، والمظهر يظل مظهرًا، وما أجمل أن يجتمع للإنسان المظهر والجوهر معًا، على حد قول الرافعي رحمه الله: "إن خير النساء من كانت على جمال وجهها، في أخلاق كجمال وجهها، وكان عقلها جمالاً ثالثًا؛ فهذه إن أصابت الرجل الكفء، يسرت عليه، ثم يسرت، ثم يسرت؛ إذ تعتبر نفسها إنسانًا يريد إنسانًا، لا متاعا يطلب شاريًا، وهذه لا يكون رخص القيمة في مهرها، إلا دليلًا على ارتفاع القيمة في عقلها وأدبها ودينها، فالمرأة للرجل نفس لنفس، لا متاع لشاريه؛ والمتاع يقوَّم بما بُذل فيه إن غاليًا وإن رخيصًا، ولكن الرجل يقوم عند المرأة بما يكون منه؛ فمهرها الصحيح ليس هذا الذي تأخذه قبل أن تحمل إلى داره، ولكنه الذي تجده منه بعد أن تحمل إلى داره، مهرها معاملتها، تأخذ منه يومًا فيومًا، فلا تزال بذلك عروسًا على نفس رجُلها ما دامت في معاشرته".

أما ذلك الصداق من الذهب والفضة فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النفس، أفلا تراه كالجسم يهلك

ويبلى، أفلا ترى هذه الغالية - إن لم تجد النفس في رَجُلها - قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد؟!

فإذا انتقلنا إلى التدين الحقيقي الصحيح والتدين الشكلي أو السياسي نجد أن ظاهرة التدين الشكلي والتدين السياسي تعدان من أخطر التحديات التي تواجه المجتمعات العربية والإسلامية، سواء من هؤلاء الذين يركزون على الشكل والمظهر ولو كان على حساب اللباب والجوهر، وإعطاء المظهر الشكلي الأولوية المطلقة، حتى لو لم يكن صاحب هذا المظهر على المستوى الإنساني والأخلاقي الذي يجعل منه القدوة والمثل، ذلك أن صاحب المظهر الشكلي الذي لا يكون سلوكه متسقًا مع تعاليم الإسلام يُعد أحد أهم معالم الهدم والتنفير، فإذا كان المظهر مظهر المتدينين مع ما يصاحبه من سوء المعاملات، أو الكذب، أو الغدر، أو الخيانة، أو أكل أموال الناس بالباطل، فإن الأمر هنا جد خطير، بل إن صاحبه يسلك في عداد المنافقين، ألم يقل نبينا ﷺ: "آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان" (متفق عليه)، ويقول ﷺ: "أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خُلَّة منهن كانت فيه خُلَّة من نفاق

حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غَدَر، وإذا وعَدَ أخلف، وإذا خاصم فَجَر" (متفق عليه)، ويقول ﷺ: "إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه" (متفق عليه)، وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "من أبدى فوق ما في قلبه فهو منافق".

وأخطر من هذا التدين الشكلي التدين السياسي ونعني به هذا الصنف الذي يتخذ الدين وسيلة ومطية للوصول إلى السلطة من خلال استغلال العواطف الدينية وحب الناس وبخاصة العامة لدينهم، وإيهامهم بأن هدفه من الوصول إلى السلطة إنما فقط هو خدمة دين الله عز وجل والعمل على نصرته والتمكين له.

وعلينا أن نفرق وبوضوح شديد لا يقبل الالتباس بين التدين الحقيقي الخالص لله عز وجل وهو ما نسعى إليه، ونسأل الله أن يهدينا إليه وبين التدين الشكلي المظهري الذي تحاول الجماعات المتطرفة من خلاله تسويق أنفسها على أنها حامية الدين.

* * *

المتـــــرددون

في ظل حكـم الأهـل والـعشيرة انقسـم المجتمع إلى فئات وطبقات وشرائح متعددة، منها: المقاومون، ومنها الصامدون، ومنها الصامتون، ومنها المخدوعون، ومنها المترددون، ومنها الممالئون، ومنها المهرولون، وعلى رأسها المستفيدون والمنتفعون.

فالصامدون هم من حافظوا على مبادئهم، ووقفوا عند ثغورهم، لم يفرطوا ولم يستسلموا لطغيان الإخوان السلطوي الإقصائي لغير الأهل والعشيرة، أما المقاومون فكانوا أعلى درجة وأبعد همة، فلم يقف دورهم عند حد الصمود، بل تجاوزه إلى حد المقاومة، وقد ضاق الفصيل الإخواني بهذا الفريق المقاوم، وكان قد أعد العدة للخلاص منه، ولكن الله ﷻ عجل بالإخوان وعهدهم، فلم يتمكنوا من التنكيل بهؤلاء المقاومين، ولا حتى بالصامدين، أو الصامتين؛ لأن

الإخوان لم يكونوا ليقبلوا غير فصيلهم وجماعتهم، بل كانوا يعدون كل من سواهم إما ناقص الإسلام، أو ناقص الوطنية، أو ناقص الأهلية، فمن أكثر ما جعلني أختلف معهم هو إحساسهم بالتميز على من سواهم، ونظرتهم إلى غيرهم نظرة احتقار أو استصغار، وكأن الجنة ما خلقت إلا لهم، ولا تؤتى إلا من قبلهم، ولا يمسك بمفاتيح أبوابها سواهم، أما هم فأخطاؤهم مبررة، وذنبهم مغفور، وحجهم مبرور، ولو ارتكبت فيه الكبائر والموبقات.

وأما الطامة الكبرى فكانت في الممالئين والمنافقين والمنتفعين بل المهرولين بحثًا عن سلطة أو جاه أو مال أو حتى وعد معسول مكذوب، وقد تميز الإخوان بمكر ودهاء منقطع النظير، حيث أوهموا المقربين منهم والمخدوعين بهم بالمن والسلوى والنعيم المقيم في الآخرة، وقد سمعت بأذني من يقول: لو سرتم خلفنا لأكلتم المن والسلوى، كما زعم بعضهم أن رئيسهم المعزول قد صلى بالنبي ﷺ، أو أن جبريل عليه السلام كان يرفرف بجناحيه على إرهابي رابعة العدوية، وكانوا شأن الشيعة يؤمن أكثرهم بتقية تفوق تقية الشيعة،

ويستحلون الكذب للوصول إلى أغراضهم، حتى قال لي أحد الأصدقاء وهو أستاذ بطب الأزهر: أنا صرتُ أعرف الإخوان وأميزهم بكذبهم، وكنت أشك في بعض الناس هل هو إخواني أو لا حتى كذب، فلما كذب تيقنتُ أنه إخواني، فقد ارتبط بهم الكذب وارتبطوا هم به، إلا ما رحم ربى.

وأما الحسرة والأسى الحقيقيان فهما أولًا على المخدوعين المغرر بهم من الشباب والناشئة وبعض العامة الذين هم في أمس الحاجة إلى من يحنو عليهم، ويأخذ بأيديهم إلى طريق الرشاد، وينقذهم قبل فوات الأوان، ومن هنا كان تكثيفنا للقوافل الدعوية في الأزهر والأوقاف، والتنسيق مع وزارات الشباب والرياضة، والتربية والتعليم، والتعليم العالي، والثقافة، لإنقاذ هؤلاء الشباب والناشئة من يد المغالين والمتشددين، وأما الممالئون والمنافقون والمهرولون والمنتفعون فهم أكثر الخاسرين؛ لأنهم راهنوا على ما فيه خسارتهم وخسارة مبادئهم وقيمهم إن كان لهم قيم ومبادئ يحافظون عليها.

ونؤكد أن الأعمال بالنيات، فمن كانت نيته لغير الله خاب وخسر في أمر دينه ودنياه، ومن تاجر بدين الله تعالى،

وطلب الدنيا بعمل الآخرة، مُحي ذكره، وحبط عمله، وأُثبتَ اسمه في أصحاب النار.

وللأسف كشفت لنا الأيام والسنوات القليلة الماضية عن أناس يحسنون التلون والمخادعة، ويطيرون خلف كل ناعق، بلا حياء من الله، ولا من الناس، ولا من النفس، ونأمل أن يكون هؤلاء قد استوعبوا الدرس، وفهموا قول الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وأن الإنسان قد يستطيع أن يخدع بعض الناس لبعض الوقت، ولكنه لا يستطيع أن يخدع كل الناس كل الوقت، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الرعد، الآية ١٧].

ولكن المحزن في هذه المرحلة الفارقة في تاريخ وطننا وأمتنا، والتي تقتضي منا جميعًا أن نقف وقفة رجل واحد في مواجهة الإرهاب وقُوى الشر والظلام، هو أن بعض الناس مازالوا مخدوعين أو مترددين في وقت نحتاج أن نذود فيه بشجاعة عن حمى الوطن الذي هو القلب النابض للعروبة والإسلام، وهو صمام الأمان لأمتنا العربية، وعمود

خيمتها، فالأمة العربية بخير ما دامت مصر بخير، والإسلام بخير ما دامت مصر بخير، ومصر بخير ما دام الإسلام فيها بخير، فمصر برجالها، ونسائها، وشبابها، وفتياتها، وعلمائها، وأزهرها، وكنيستها، وقواتها المسلحة، على قلب رجل واحد في مواجهة الإرهاب والإرهابيين، وهي بهؤلاء جميعًا على قدر المسئولية والتحدي.

ومع ذلك كله هناك من يراهنون على الحصان الخاسر، ويتوجسون من الوهم، ويخشون أن تدور الأيام إلى الخلف، فلا تجد لهم موقفًا واضحًا، وهناك من هو على استعداد لأن يتحالف مع العنف والإرهاب، ومن تبنوا العنف والإرهاب مسلكًا، أو مع بقايا الفصائل المتشددة أو الإرهابية، أو ما يعرف بالخلايا النائمة لها، دون تقدير صحيح للمصلحة الوطنية، ونقول لهؤلاء جميعًا: أفيقوا، ولا ترددوا، وأدركوا الواقع، فإما أن نكون أو لا نكون، أما إمساك العصا من المنتصف فذلك عصر قد ولى إلى غير رجعة.

* * *

الصديق الذي نبحث عنه

الصديق الذي نبحث عنه هو من قال عنه مصطفى صادق الرافعي رحمه الله: هو من إذا غاب لم تقل إن أحدًا غاب عنك ولكن تشعر أن جزءًا منك ليس فيك، فهو قطعة منك، ليس ذلك الصديق الذي يماسحك كما يماسحك الثعبان، ويراوغك كما يراوغك الثعلب، أو يقبع منك كما يقبع القنفذ، فهؤلاء الأصدقاء لا تجدهم إلا على أطراف مصائبك، فهم كالذباب لا يقع إلا حيث يكون العسل، إن الصديق الحق الذي نبحث عنه هو من قال عنه الإمام الشافعي رحمه الله:

إن الصديق الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت نفسه فيك ليجمعك

لا هذا الذي قال عنه الشاعر العماني أبو سرور:

مالي أراك وأنت كنت صديقي باعدتني زمنًا بكل عقوق
قد كنت من أعددته لنوائبي لو عضني ناب الزمان بضيق
أوحى إليك بأن دهري عقني فطفقتَ أنت تعين بالتصفيق
ومتى تبينت الحقيقة أنني جلًا حللت بمنصب مرموق
قد جئتني تسعى تهنئ بالمنى عجبًا لأمرك في رضًا وعقوق
إن المحبة في الفؤاد مكانها تبدو حقائقها مع التضييق

وقد قيل لأحدهم: من أصدقاؤك؟ فقال: لا أعلم، قيل له: لماذا؟ قال: لأن الدنيا مقبلةٌ علي، فإن أدبرت عرفت عدوي من صديقي؛ لأن أكثر الناس يدورون مع الزمان حيث دار، فإن كان معك كانوا معك، وإن كان عليك كانوا عليك، ولذا قالوا: الصديق وقت الضيق، وقال الشاعر:

جزى الله المصائب كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

وقال آخر:

رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهبُ
ومن لا عنده ذهب فعنه الناس قد ذهبوا
رأيت الناس منفضة إلى من عنده فضة
ومن لا عنده فضة فعنه الناس منفضة
رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مالُ

ومــن لا عنــده مـــــال فعنــه النــاس قد مالـوا

وقال الآخر:

يُحّيـا بالسـلام غنــي قـوم ويبخـل بالسـلام علـى الفقير

أليـس المـوت بينهما سـواء إذا ماتـوا وصـاروا فـي القبور

إن الصديق مشتق من الصدق، فهو من يصدقك في السر والعلن، في البأسـاء والـضراء، في المنشط والمكره، من يحب لك ما يحبه لنفسه، ويكره لك ما يكره لنفسه، يقول نبينا ﷺ: "لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" (رواه البخاري)، ويقول ﷺ: "ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"(رواه البخاري)، ويقول ﷺ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نَشَأَ في عِبادة الله تعالى، ورَجُلٌ قَلْبُه مُعَلَّقٌ بالمساجد، ورَجُلانِ تَحَابَّا في الله: اجْتَمَعَا عليه وتَفَرَّقَا عليه، ورجلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فقال: إني أَخاف الله، ورجلٌ تصدَّق

بصَدَقَةٍ، فأَخْفَاهَا حتِّى لا تَعْلَمَ شِمَالُه ما تُنْفِقُ يَمِينُه، ورجلٌ ذكر الله خاليًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" (متفق عليه).

وروي "أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لاَ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي الله ﷻ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ" (رواه مسلم)، وفي الحديث القدسي: "وَجَبَتْ مَحَبَتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ" (مسند أحمد)، ويقول نبينا ﷺ: "الْمُتَحَابُّونَ فِيَّ الله لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَغْبِطُهُمُ الشُّهَدَاءُ" (المستدرك على الصحيحين)، فما أجمل أن تكون العلاقات والصداقات خالصة لوجه الله ﷻ، قائمة على الحب والمودة والإنسانية والإيثار، مبنية على المروءة والقيم والأخلاق السوية، بعيدًا عن كل ألوان الأنانية والنفعية والانتهازية المقيتة.

* * *

الموضـــــوع

مقدمة	٥
في رحاب فن المقال	٩
أسئلة مشروعة وأخرى ممنوعة	١٧
العواصم والحدود وبناء الدول	٢٣
مفهوم الأمن القومي	٢٧
التدين الشكلي والتدين السياسي	٣٣
الخلاف الفقهي والخلاف السياسي	٣٩
تغييب العقل	٤٥
تنافس الأقران والمعاصرين وغير المتناظرين	٥١
الجمال الحقيقي والصداق الحقيقي	٥٧
المنافقون الجُدُد	٦١
الطبيب الإنسان	٦٥
سلوك وسلوك	٦٩

الرجولة في الفيس بوك	٧٥
الوفـــاء من شيم الكرام	٧٩
ابتلاءات الأنبياء والصالحين	٨٣
نحو توظيف أمثل لأموال الزكاة	٨٩
نساء مصريات	٩٧
مال الوقف ومال اليتيم	١٠٥
الوُجُوه المسفرة	١١١
مصائر الأمم	١١٧
مرضاة الله ورضا الخلق	١٢٣
القيم الإنسانية	١٢٧
الزينة والجوهر	١٣٣
المترددون	١٣٧
الصديق الذي نبحث عنه	١٤٣

الهيئة المصرية العامة للكتاب